

محمد إقبال

سِيرَتُهُ وَفَلَسَفَتُهُ وَشِعْرُهُ

الدكتور عبد الوهاب عزام



محمد اقبال

سیرتہ و فلسفہ و شعرہ

الدكتور عبد الوهاب عزام

الأكاديمية اقبال، باكستان

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

محمد سهيل عمر

مدير

اكاديمية اقبال باكستان

(حكومة باكستان)

6th Floor, Aiwan-e-Iqbal, Lahore, Pakistan

Tel: [+92-42]36314-510

Fax: [+92-42]3631-4496

Email: info@iap.gov.pk

Website: www.allamaiqbal.com

ISBN: 969-416-151-7

الطبعة الاولى : ١٩٥٤م

الطبعة الثانية : ١٩٦٠م

الطبعة الثالثة : ١٩٨٥م

الطبعة الرابعة : ٢٠١٢م

تعداد : ٥٠٠

مطبع : بي بي ايچ پرنٹرز، لاہور

ثمن النسخة : ٢٥٠ روبية

وظيفة للبيع : ١١٦ خيابان ميكلود، لاہور تلفون: ٣٧٣٥٧٢١٤

مقدمه

للدكتور طه حسين

يرحم الله صديقى الكريم عبدالوهاب عزام فقد كان مصدر نفع أى نفع و خير أى خير لوطنه و لغته . كان رائداً من رواد الحياة الاثنية العليا بأدق معانيها و أصدقها فى الوطن العربى كله ثم فى التقريب بين هذا الوطن العربى و بين أوطان أخرى بعيدة فى الشرق و الغرب .

عرفته طالباً فى مدرسة القضاء الشرعى مختلفاً الى دروس الجامعة الحرة و كنت فى تلك الايام أستاذاً للتاريخ اليونانى الرومانى القديم ، فكان يختلف الى الدروس التى كنت ألقياها . و أشهد لقد كان أبرع الطلاب الذين كانوا يشهدون دروسى فى تلك الايام و أنجبهم كان أرقهم قلباً و أدقهم شعوراً و أصفاهم ذوقاً و أبعدهم أفقا .

لم يكن يكتفى بدروسه فى مدرسة القضاء على عسرهما و تعقدهما ، وإنما كان يقبل عليها وجه النهار ثم يسعى من آخر النهار الى الجامعة فيشهد ما كان يلقى فيها من دروس . فاذا فرغ لنفسه حين يقبل الليل جد فى الدرس و الاستذكار لما كان يسمع فى المعهدين من دروس .



ثم لم يكن يكتفى بهذا كله وإنما كان يضيف إليه نشاطاً جديداً لم يكن مألوفاً في مصر أثناء ذلك العصر .

كان يحاول أن يتعلم اللغة التركية ، و كنت إذا أردت أن أدرب طلاب الجامعة على قراءة نص من النصوص الفرنسية التي تتصل بتاريخ الحضارة اليونانية أو الرومانية أو بالأدبين اليوناني واللاتيني كلفته هو القراءة والتفسير ، و قمت منه مقام الأستاذ الذي يعلم تلاميذه كيف يقرأون وكيف يفقهون .

وكان زملاؤه بألفونه و يعجبون به ، و كنت له محباو به معجباً كزملائه . و قد ظفر بالليسانس من الجامعة القديمة و تخرج في مدرسة القضاء الشرعى ، ثم ارسل الى السفارة المصرية في بلاد الانجليز حين استطاعت مصر ان ترسل السفراء الى البلاد الاجنبية . فلم يكتف بعمله فيها و انما اختلف الى جامعة لوندرة ، فسمع لدروس المستشرقين فيها و جعل يدرس اللغة الفارسية و آدابها و ظفر منها بدرجة الماجستير . ثم دعوته الى الجامعة المصرية بعد أن أصبحت حكومية فعلم في كلية الآداب مع أستاذه . و كان يعلم اللغة العربية واللغتين الفارسية و التركية . و لم يكن يكتفى بهذا أيضاً و انما كان يستزيد من العلم باللغات الشرقية حتى أتقن الفارسية و التركية ، و أصبح مؤسساً للقسم الذى كانت تدرس فيه هاتان اللغتان . فهو أول مصرى علم في جامعة و طنه اللغات الشرقية الاسلامية .

وفي أثناء ذلك ظفر بترجمة عربية للشاهنامة ، فصححها وأكملها ثم نشوها وتقدم بها و بدراسة للشاهنامة ، لنيل درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية . وكان يوم مناقشته في رسالته يوما مشهودا من أيام الجامعة شارك في مناقشته أساتذته الذين صاروا له زملاء ، وحضر هذه المناقشة تلاميذه ، كما شهدها مدير الجامعة ووزير المعارف إذ ذاك .

فكان امتحانه عيداً من أعياد كلية الآداب بل من أعياد الجامعة ، رأت فيه مصر شابا من شابا يتخصص في الأدب الفارسي ويشارك الغربيين في احيائه ، ثم يحيه للأمة العربية التي بعد عهدها يمثل هذه الدرامات . ثم صار أستاذاً للغة الفارسية وآدابها ورئيساً للدراسات الشرقية الاسلامية ، ولم يلبث أن برز في هذه الدراسات فأتقن العلم بها اتقاناً نادراً . وكان في الوقت نفسه كثير البحث عن القديم من الأدب الفارسي كثير العكوف على دراسته مغرقاً في درس التصوف الفارسي حتى تأثر بهذا التصوف في حياته اليومية وفي سيرته مع من يآلف من الأساتذة و من يعلم من الطلاب - وظفر ذات يوم بنسخة مخطوطة من كتاب كليلة و دمنة الذي نقل الى العربية في القرن الثاني للهجرة ، وكانت نسخته تلك أقدم النسخ المعروفة من هذا الكتاب ، فأسرع الى تحقيقها ونشرها . ثم أنفق حياته الجامعية كلها في تثبيت هذه الدرامات الشرقية الاسلامية

فتخرج عليه تلاميذ برعوا في هذا اللون من العلم كما برع أستاذهم وأصبحوا الآن أساتذة لهذه الدراسات في الجامعات المصرية .

فهو لم يهد علمه الى وطنه العربي فحسب و انما أهدي الى هذا الوطن علماء نابهن يسرون الآن سيرته ، فيهدون علمهم الى وطنهم وينشئون لهذا الوطن علماء مثاهم . فقد كان عبدالوهاب هزام اذن شخصية مباركة على العالم العربي الحديث لم يؤثر نفسه بالخير ، بل لم يؤثر نفسه بخير ما ، وانما أثر و طنه بالخير كله وبالجهد كله وبالاخلاص كله . فاءذا عدا عليه الموت فاخطفه من بين تلاميذه وزملائه ومحبيه ، فان الموت لم يقدر عليه و لم يقطع صلته بالحياة لانه ما زال يحيا بيننا بعلمه الذي انتشر في الشرق العربي كله بل في الشرق الاسلامي كله وبتلاميذه الذين يبذلون من الجهد مثل ما بذل ويبدون في الدرس كما جد ، و يخلصون قلوبهم لوطنهم و أمتهم و للعلم كما أخلص جهده لوطنه و أمته للعلم . و قد استسكشف فيما استكشف نابغة من نوابغ الشرق هو الشاعر العظيم محمد اقبال شاعر الهند والباكستان ، فلم يختص نفسه بما درس من شعره و أدبه، و انما قدم طائفة صالحة رائعة من آثاره لوطنه و للغة العربية ، و ألف عنه كتابا ممتعاهو الذي أشرف بتقديمه الى قراء العربية في طبعته الثانية . و هو كتاب أقل ما يوصف به أنه صورة صادقة رائعة لكاتبه

و لموضوعه جميعاً . فهو لا يصور اقبالا وحده و انما يصور معه مؤلفه عبد الوهاب عزام . كلا الرجلين كان عذب الروح محببا الى القلوب ، وكلا الرجلين كان بعيد المرامى . لم يكن عبد الوهاب عزام يكتفى بأن يكون مصريا عربيا و انما كان يريد — وقد حقق ما كان يريد — أن يكون عربيا اسلاميا . فأتقن العلم بأمر المسلمين جميعاً قريبتهم و بعيدهم ، وسار سيرة المسلم الصادق فى اسلامه و المتصوف المخلص فى تصوفه . ولم يكن اقبال يكتفى بأن يكون هنديا يفكر دائما فى أن يستقل المسلمون بالپاكستان ، و انما كان حريصا على أن يكون كذلك ، و على أن يكون مسلما صادق الاسلام و متصوفا خالص التصوف .

فكان لقاء هذين الرجلين الكريمين لقاء روحين اثتلفا فتحابا فى ذات الله و فى ذات الاسلام . وكلا الرجلين كان شاعر اكاتبا . أدى اقبال أكثر آثاره شعرا و ترجم عبد الوهاب عزام الى العربية كثيرا من آثاره شعرا أيضا . ثم لم يقف عزام عند اللغة الفارسية وحدها ، و انما أتقن معها التركية و نقل منها الى العربية أشياء كثيرة متفرقة . و لم ينفذ و طنه بالعلم و لا بالعلم و الادب وحدها ، و انما كان سفيرا لبلاده فى الپاكستان ، فأحسن السفارة و بلغ من التقريب بين المسلمين من العرب و المسلمين من الشرق البعيد ما لم يبلفه مصرى قبله ،



ثم يريد الله لعبد الوهاب عزام أن يختم حياته مديراً للجامعة الأولى التي أنشئت في أعماق نجد في عاصمة البلاد العربية السعودية . ولو قد مدت له أسباب الحياة هناك لكان لتأثيره في العقل العربي شأن أي شأن ، ولكن لله حكمة هو بالغها و أمرا هو منفذه ، فقد اختار لعبد الوهاب عزام أن يلم بوطنه و أهله و أصدقائه مودعا أو كالمودع ، ثم يسافر الى جامعته في الرياض فيكون هذا آخر العهد به آخر العهد بشخصه الحبيب ، فأما علمه و أدبه فباقيان ما بقيت اللغة العربية و الامة العربية . سلام على عبد الوهاب عزام من صديق له و زميل احبه أشد الحب ، و أثره أعظم الايثار ، ولقى من حبه و ايثاره ما لا يستطيع أن ينساه .



مقدمة

للدكتور يحيى الخشاب

مجد اقبال ، الكتاب الذى تقدمه اليوم الى قراء العربية ،
كتبه أستاذنا الجليل الدكتور عبدالوهاب عزام الذى كان أول
من عرف العرب باقبال .

والكتاب صورة صادقة لآراء اقبال الفلسفية و الاجتماعية ،
و هو صورة صادقة أيضاً لمؤلفه عزام .

تقرأ الكتاب فتجد الشبه الواضح و القرب الشديد بين الرجلين :
اقبال و عزام . كلاهما لشأ نشأة دينية ، و كان المفروض أن يبقى
كل منهما فى مكانه يعلم الناس ما تعلم فى المدرسة الدينية ، و لكنها
يتركز التعليم الدينى الى أوربا و يرحلان فى طلب العلم الى انجلترا .
وتشاء المصادفات أن يتصل الرجلان بأستاذ واحد هو السير
توماس آرنولد ، تتلمذ عليه اقبال فى شبابه ، فى الهند و فى انجلترا ،
و تتلمذ عليه عزام فى شيخوخته فى انجلترا . و كان آرنولد صديقاً
لاقبال يحبه و يؤثر صحبته فى الهند ، و كان فى الوقت نفسه صديقاً
لعزام يحبه و يؤثر صحبته حين يندب لالقاء محاضرات فى الجامعة
و بنزل فى حلوان اىكون قريباً من صديقه و زميله عزام .

و يعود كل من اقبال و عزام الى بلده . عاد اقبال الى الهند فعلم فى لاهور قليلا ، ثم ترك الجامعة و عمل فى المحاماة ، ولكنه لم يترك فكرة الأستاذية ، فهو دائم التنقل بين الجامعة و قاعات المحاضرات يتحدث الى تلاميذه و أصدقائه بأرائه فى الفلسفة و الاجتماع . وكذلك عاد عزام الى القاهرة فعمل أستاذاً بالجامعة ، و ظل على صلته بتلاميذه و أصدقائه فى قاعات الدرس بالجامعة و فى قبة الغورى ليتحدث عن آرائه فى الأخوة الاسلامية التى كان يدعو اليها ويرأس جمعيتها .

ولقد أحب عزام اقبالا منذ كان يطلب العلم فى لندن ، سمع عنه من أستاذه توماس آرلولد ، و استمع الى أحاديث أستاذ هندى كان يحلوه له أن يتحدث عن اقبال و لما عاد الى مصر بدأ دراسته لاقبال مع شاعر الاسلام محمد عاكف ، الذى كان يتقابل مع عزام فى كلية الاداب حيث كانا يعملان ، و فى حلوان حيث يسكنان . و كان عاكف من المعجبين بشعر اقبال و فلسفته و كان كثير القراءة فى دواوينه . و بدأ عاكف و عزام يقرآن پیام مشرق ، رسالة المشرق ، فزاد عزام كفا بدراسة اقبال و أخذ يطيل فى قراءته . و فى مصر ، سنة ١٩٢٢ ، التقى عزام باقبال بالقاهرة ، و كان عليه أن يقدمه الحاضرين و يعرفهم به ، فكان هذا اللقاء

بين الرجلين فاتحة لصلة وثيقة ، هي تآك الصلة التي تكون بين المرشد ومرشده أو بين التلميذ وأستاذه .

تقرأ الكتاب فترى فيه عظاما يشرح صلته باقبال . ثم يحدثنا عن فلسفة اقبال كما صورها في كتبه التي استطاع عزام أن يقدم للعربية الكثير منها . يتحدث عن الذاتية ، وهي الفكرة التي تعد محور فلسفة اقبال ، و التي أفرد لها ديوان . أسرار خودى - - هو يخالف الصوفية الذين يدعون الى فناء النفس و يدعو الى أن هذه الذات يجب أن تقوى و أن تعد نفسها لكفاح دائم متواصل لا يعرف اناة او هدوءا . هو يريد هذه الذات ان تكون دائماً فى حالة توتر ، تعمل و لا تمل العمل . و بقاء هذه الذات واضعلاها متوقف على قوتها و احساسها بنفسها . فكلمة كانت قوية مؤمنة عاملة ازداد صاحبها قربا من ذات الله و اشبه فى قوته قوة الانبياء .

حتى (مقام الشهود) الذى يعده الصوفية غاية الغايات و يعدون من يبلغه (واصلا) حتى هذا المقام بعده اقبال بداية للعمل المتواصل و الرسالة الاصلاحية التي تظل تسعى لتحقيق اهداف يوحى بها الايمان بالمسئولية التي تقع على العاملين .

انه يذكر كلمة لا حد المتصوفة يقول فيها : (ان النبي عليه السلام قد صعد الى السماء ، ثم عاد منها . آه لو بلغت هذا المقام لما نزلت

الى الأرض ابدأ) . يذكر كلمة هذا الصوفى ثم يسأل : اية فائدة يؤديها للناس اذا بلغ هذا المقام ؟ انما نزل النبي الى الأرض ليم رسالته التي كانت كفاحا و جلدا وسعيا لا يعرف فيها راحة اودعة . فان الذي يجتبيه الله و يقربه و يبلغه (مقام الشهود) يكون أول واجب عليه هو ان يسعى بالخير في هذه الأرض ، يعمل عملا صالحا ، و يقول قولاً صالحا ، و يفكر فكراً صالحا .

و يترك عزام ديوان اسرار الذات الى ديوان اسرار لفي الذات الذي يتحدث فيه عن فكرة جديدة لاقبال ، هي ان الامة الاسلامية لاتعد بوطن انما يحدها شيان : التوحيد و الرسالة المحمدية . ويحاول اقبال في هذا الديوان ان يبرهن على ان الامة الاسلامية او الامة المحمدية لاتعرف اوطاناً ولكنها تقوم على هذين العمادين ، وانها يوم يستقل كل بلد اسلامي تقوم الرابطة بين البلاد الاسلامية و تصبح وطناً واحداً قوامه التوحيد و الرسالة .

ولاشك ان راي اقبال في هذا يعبر عن شعور مسلم دقيق الشعور مرهف الاحساس بما كان يجري في الهند من تنازع بين الطوائف الدينية و اضطهاد للاقلية فيها . و قد كان اقبال من اول من نادوا باءتشاء باكستان الذي تحقق بعد وفاته بتسع سنوات .

ويتناول عزام دو اوين اقبال الواحد بعد الاخر ، يلخصه

ويختار منه ما يروق له فينظمه بالعريبه . و الذى يتتبع مختارات
عزام و له به معرفة يرى ان عزاما قد اختار من اقبال مايتفق مع
آرائه و افكاره ، فقد كان يتجه نحو الاخوة الاسلاميه كما قلت ،
وهى الدعوة لنفسها التى دعا اليها اقبال فى كل كتبه .

و حين ترك عزام الجامعه و عمل سفيرا هاكستان اتسع وقته
و عاونه بيئه اقبال على ان يتفرغ لدراسه الانتاج الشعرى الفيلسفى
لاقبال ، فنقل منه الى العريبه :

ببام مشرق و ضرب الكلم و دهبان الأمرار و الرموز .

ثم طلب اليه جماعه من محبي اقبال فى هاكستان ان يكتب عنه
كتابا فكان هذا السفر القيم الذى قدمه لقراء العريبه بالأمس
والذى لعيد لشره اليوم .

لقد كنت اتمنى ان يقدم الراحل الكريم استاذى عبدالوهاب
عزام كتابه هذا بنفسه فى طبعته الثانيه ، حتى يتحدث الهنا - وقد
طاب له المقام فى الجزيرة العريبه سفيراً لأمته ومديراً لأول
جامعه بها - عن شعوره بعد ان عاش بضع سنين فى هذا البلد
الأمين الذى بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم و الذى منه البثق
نور الدعوة الاسلاميه ، كما يحدثنا عن شعور اقبال حين كتب
(ارمغان حجاز) (هديه الحجاز) و كيف كان يستلهم بها

و صاحبيه ابابكر و عمر متخذاً منهم القدوة الصالحة فى السلوك
الصوفى الاسلامى الذى يجعل الاعتداد بالذات مع العمل المشر
قاعدة للحياة ، و كيف كان يتخذ من السيدة فاطمه ، بنت النبى عليه
السلام و زوج على كرم الله و جنبه و ام الحسن و الحسين رضى الله
عنهما ، قدوة المرأة الصالحة العاملة ، بنتا طيبه و زوجاً طيبه و اماميه

و حتى يحدثنا عن الوحده العربيه الاسلاميه التى كانت تملك
عقله و قلبه و التى عنها كانت قراءاته الطويله و كتاباته الكثيره
الرزينه و التى من اجلها اعد دروسه و ادار احاديثه و التى من اجلها
احب اقبالا و اقبل على قراءته و ترجمة آثاره ليقرأها العرب
وليعرفوا قدر تراثهم العظيم الذى الهم فيلسوف باكستان هذه
الاشاده بالعرب و بأبجادهم ، و الهمه مطالبتهم بان يكو نوا جميعاً
فى وحده شاملة مع المسلمين ليعيدوا الى امة مجد مجدها الذى
لا يدائيه مجد ، ايام كالت الكلمة العليا للعرب ، فى السيامه
و فى الثقافة على حد سواء .

ولكن يشاء الله ، وله الامر كله ، ان يختار عبدالوهاب عزام
الى جواره ، و ان يجعل مشواه فى بيت من بيوته التى يذكر فيها اسمه
و يصلى فيها الناس .

رحم الله عزاما و رحم الله اقبالا و نفع بأثارهما المسلمين اجمعين .

ذو القعدة ١٣٧٩

مايو ١٩٦٠



المغفور له الدكتور محمد اقبال



محمّد اقبال

سیرتہ و فلسفہ و شعرہ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

— ١ —

محمد اقبال شاعر نابغة ، وفيلسوف مبدع ، احتفل في باكستان وغيرها في نيسان الماضي بالذكرى الرابعة عشرة لوفاته . وذكره يشيع ، وصيته يذيع على من الأيام ، ولا سيما منذ نشأت دولة باكستان — وهي حقيقة تخيلها والناس منه يضحكون ، ويقظة حلم بها واليائسون به يتفكرون .

احتفى الناس بذكراه كل عام ، وكثرت المجامع في كل ذكرى ، تشيد بدعوته ، وتدعو الى رسالته . وشرع أدباء الأمم يعنون بترجمة شعره الى لغاتهم .

وقد سألت أن أكتب في سيرته وفلسفته وشعره كتابا مجملا ، أجعله مقدمة لتفهم دواوينه التي ترجمتها الى اللغة العربية . فأجبت على العيلات- ، وعلى كثرة الشواغل .

وأنا لا أمدعى الى اقبال الا لبیت ، استجابة لما في نفسى من عشق ، واكبارا لهذا الشاعر الفيلسوف المؤمن .

وهذه مقدمة أقدمها تعريفاً به . أقدم فيها ما يقرب الى القارىء صورته ويجميل له دعوته ، ليتهاى لقراءة هذا الكتاب طلبا للتفصيل ورغبة فى المزيد ، وشوقا الى شعر بدع وفلسفة أمتف ، واعجابا بالفكر المحلق،

— ٣ —

والمفكر الحر ، والفيلسوف الذى لا يسير مع الزمان ، ولا يخضع لتقلب
 الحداث ، والشاعر الذى ينفخ الحياة فى الموت ، ويبعث فى القفر ألوان
 النبات ، ويشعل الجمر الخامد ، فى الرماد الهامد .
 أبين فى هذه الكلمات كيف سمعت بأقبال اسما مبهما وقولاً مُعجماً ،
 وكيف زادت معرفتى به على مرّ الزمان حتى وقعت فى بحره وسبحت
 فى لُجّته ، ثم أويت الى الساحل أنظر العباب الزاخر ، والآذَى الثائر ،
 وأصف ما رأى لمن لم يعرفه معرفتى ، ولم يولع به وكوعى .

— ٢ —

سمعت وأنا فى بلاد الانكليز ، قبل وفاة الشاعر بأكثر من عشر سنين،
 أن فى الهند صوفيا اسمه اقبال له نظرات فى التصوف ، وله فلسفة فى
 النفس ، وأن ذكره جاء فى بعض المجلات الأوربية ، وكلامه نُشر فيها .
 وأنا نزاع الى الصوفية منذ نشأت . وزادنى معرفة بها ورغبة فيها
 وحباً فى المزيد منها ، أن تعلمت اللغة الفارسية وقرأت الشعر الفارسى ،
 وأعلام شعراء الفرس وأشدّهم استيلاء على النفوس واستحواداً على
 القلوب هم الصوفية منهم . وقد أثروا تأثيرهم فى الشعر الفارسى حتى
 لا يخلو شاعر فارسى من نفحة صوفية .

لبثت متشوقا الى اقبال ، أخباره وشعره وفلسفته ، على قِلّة ما سمعت
 عنه ، وعلى غموضه وعلى كثرة شواغلى .

— ٣ —

وما أحسب علمى به زاد على هذه النُتف من الأخبار ، حتى صحبت
 الصديق الشاعر محمد عاكف ، رحمه الله — وكان صديقى ورفيقى وأنيسى
 فى حلوان دار اقامتنا ، وفى جامعة القاهرة — فأرانى يوماً ديوان پیام
 مشرق أحد دواوين الشاعر اقبال . وما قرأت من قبل ولا سمعت من
 شعر اقبال كثيراً ولا قليلاً .

وقال محمد عاكف : ان صديقا — وأحسبه سفير تركيا فى أفغانستان

— ٤ —



الدكتور عبد الوهاب عزام

يومئذ - أرسله الى - . فأقبلنا على الديوان نقرأ معاً فنشعَب بالفكر
والشعر ، و تنتقل في روضة أنتف تلقى العين والنفس بيهجتها من النشوار
والزهر ، مختلف الألوان والأشكال ، مؤتلف الرَونق والجمال .

عرفت اقبالا في كلامه يومئذ ، ولكنها معرفة من قرأ قليلا من كلامه ،
غير خبير بعباراته ، ولا عارف بأشاراته ، ولا مدرك فلسفته ومذاهبه
ودعوته ومقاصده .

ولا تزال نسخة پیام مشرق النى أعارنى اياها الصديق محمد عاكف ،
عندى ، عليها علاماته في مواضع الاعجاب ، أو مواضع السجود من الشعر
كما قال الفرزدق^١ وهى عندى ذكرى اللقاء الأول لقاء اقبال في ديوان
رسالة المشرق ، وذكرى شاعر الاسلام محمد عاكف .

ثم أهدى الى - أحد مسلمى الهند ، وقد عرّف جتى اقبالا وحرصى على
الاستزادة من كلامه ، المنظومتين : أسرار خودى ورموز بى خودى .
فرأيت فيهما أسلوبا بدعا من الفلسفة التى سمّاها فلسفة خودى (الذاتية)
وطريقة عجباً في الشعر ، ومذهبا معجِباً في التأليف بين مذهبه وبين
الاسلام ، عقائده وفلسفته وحضارته وتاريخه . وما زال أصحابى في
بلاد العرب والعجم يتحفوننى بما تناله أيديهم من دواوين اقبال ، فأزداد
معرفة به واعجاباً وحباً وغراماً .

وشرعت أنشر ترجمة منشورة لشعره في مجلة الرسالة . ولا أدري كم واليت
نشر قطع من شعر اقبال وعرّفت به . وقد دعيت قبل وفاة الشاعر ببضع
سنين وأنا في مدينة الاسكندرية ، الى التحدث عنه . وكان الأدباء في بلاد

(١) بروى أن الفرزدق سمع بيت لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كانها

زبر تجد متونها اقلامها

لسجد . فسل من السجد فقال أنا معشر الشعراء نعرف مواضع السجود في الشعر

العرب عُرّفوه بى ، وعُرّفونى به • فتحدثت بما راع السامعين من فلسفة
الشاعر وشعره •

وشرعت سنة ١٩٣٦ م أنظم منظومة سَمَّيتها اللغات وأهديتها الى
اقبال ونشرت مقدمتها فى مجلة الرسالة ١ •

— ٤ —

وكان من سعادة الجَدِّ وغِبْطَةِ العَيْنِ والقلب ، أن قدِمَ اقبال مصر فى
طريقه الى المؤتمر الاسلامى الذى اجتمع فى المسجد الاقصى سنة ١٩٣١ م
ودعت جمعية الشبان المسلمين الى الاحتفال بالرجل العظيم • واقترح
استاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله أن أقدم محمد اقبال الى
الحضور. اذ كنت ، على ضآلة معرفتى، أعرفَ الحاضرين به • وكان هذا
شرفا لى وسرورا ، وفاتحة من عالم الغيب لصحبة طويلة ، صحبة المريد
للرشد ، والتلميذ للأستاذ ، ومقدمةٌ لجهدٍ مديد فى الكتابة عن الشاعر
والحديث عنه ، وترجمة دواوينه الى العربية •

تحدثت ما وسعت معرفتى ، وأنشدتُ أبياتا من ديوان رسالة الشرق
عَلِقْتُ بذهنى •

وهى فيما أتذكر :

أى كه در مدرسه جوئى أدب ودانش وذوق
نه خورد باده كس از كارگه شيشه گران
خرد أفزود مرا درس حكيمان فرنگ
سینه أفروخت مرا صحبت صاحب نظران
بر كس أين نغمه كه سرمايه آب و گل تست
أى زخود رفته تهى شو زنواى دگران

(١) نشرت من بعد مع ترجمة رسالة الشرق فى كراچى سنة ١٩٥٠

وترجمتها :

يامن يطلب في المدرسة المعرفة والأدب والذوق ! ان أحداً لا يشرب
الخمير في مصنع الزجاج •

قد زادت دروس حكماء الفرنج عقلي ، وأنارت صجبة أصحاب
البصائر قلبي •

أخرج النعمة التي في قرار فطرتك • ياغافلا عن نفسك ! أخلها من
نعمات غيرك •

وكذلك أنشدت هذه الشطرات :

أى كرمك شستاب سراپای تو نور است

پرواز تو يك سلسله غيب وحضور است

آئينِ ظهور است

وترجمتها :

يا لك من يراعة تصويرت من نور

مسيرها سلسلة الغياب والحضور

وستنة الظهور

وقلت له حين انفض المجلس : لا تؤاخذنى ، ليس في وسعى أن أنشد شعرك خيرا مما أنشدت • فقال : حسن ! أنشدت صحيحا • ووقف اقبال بعد أن عرفت الحاضرين به تعريفا موجزا فتكلم بالانكليزية في أحوال المسلمين ، وتطور الفكر الاسلامى • وأفاض ماشاء علمه وبيانه • ومما وعيته من هذا الكلام قوله عن الصوفية : انهم علماء النفس بين المسلمين • وقد وكل الى الاستاذ محمد الغمراوى أن يسجّل خلاصة خطاب اقبال ويقراها على الحضور • فكتب وحاول أن يترجم ما كتب ارتجالا • ثم رأى أن يترجم على روية وينشر الترجمة في مجلة الشبان المسلمين • وقد

حرصت على لقاء الشاعر من بعد ، ولكن ضيق الوقت قبل سفره الى
القدس لشهود المؤتمر الاسلامى لم يبلغنى ما حرصت عليه ، الا لقاء
للوداع فى محطة القاهرة .

— ٥ —

ولبت اكتب عن اقبال ، وترجم من شعره ، ما وسع وقتى وعلى قدر
فقهى وعلمى بسيرته حتى نعى الينا فى نيسان من سنة ١٩٣٨ م .
فكان كما قال أبو تمام : أصم بك الناعى وان كان أسما .

وقد احتفلت جماعة الأخوة الاسلامية بتأيينه - وكنت يومئذ رئيس
الجماعة - فكان لها حفلتان بقبّة الغورى وجمعية الشبان المسلمين .
وتكلمت فى الحفلين وأنشدت من منظومة اللغات التى نظمتها وأهديتها
الى اقبال . وأنشدت قصيدة ترجمتها من ديوانه «بانگك درا» . وكان مما
قلت فى أحد خطابى فى تأيين الشاعر العظيم :

« فى اليوم الحادى والعشرين من شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٨ ،
والساعة خمس من الصباح ، فى مدينة لاهور ، مات رجل كان على هذه
الأرض عالما روحيا يحاول أن ينشئ الناس نشأة أخرى ، ويسن لهم فى
الحياة سنة جديدة .

وسكن فكر جوال جمع ماشاءت له سعته من معارف الشرق والغرب .
تم تقدما غير مستأسر لما يؤثر من مذاهب الفلاسفة ، ولا مستكين لما
يروى من أقوال العظماء .

ووقف قلب كبير كان يحاول أن يصوغ الأمة الاسلامية من كل ما وعى
التاريخ من مآثر الأبطال وأعمال العظماء .

وقرت نفس " حرّة لا يحدّها زمان ولا مكان ، ولا يأسرها ماض

— ٨ —

ولا حاضر . فهمى طليقة بين الازل والأبد ، خفاقة فى ملكوت الله الذى لا يُحدّ .

مات محمد اقبال الفيلسوف الشاعر الذى وهب عقله وقلبه للمسلمين وللشعر أجمعين ، الرجل الذى يخيّل الى وأنا فى نشوة شعره أنه أعظم من أن يموت وأكبر من أن يناله حتى هذا الفناء الجثمانى .

فاضت روح الرجل الكبير المحبوب فى داره بلاهور ورأسه فى حجر خادمه القديم على بخش ، وهو يقول : انى لا أرهب الموت ، أنا مسلم ، أستقبل المنية راضيا مسرورا .

قرأت كلام اقبال فى الحياة والموت ، ورأيت استهاتته بالحمام واستهزاءه بالذين يرهبونه . ماكان هذا خدعة الخيال ولا زخرف الشعر . فقد صدق اقبال "دعوتك فى نفسه حين لقي الموت باسم راضيا .

جدّ المرض بأقبال وكان يقترب الى الموت وهو متقد الفكر قوى القلب ، يصوغ عقله كلمات يوقظ بها النفوس النائمة ، وينثر قلبه شررا يشعل به القلوب الخاملة . وكان فى شغل بنظم ديوانه الأخير « أرمان حجاز » (هدية الحجاز) وكان قلب الشاعر يهفو الى الحجاز . وكم تمنى أن يموت فيه . وقد ضمن هذه الأمنية دعاءه فى خاتمة كتابه رموز بى خودى .

ومما قال فى أشهره الأخيرة :

آية المؤمن أن يلقى الردى باسم الشعر سرورا ورضى
وقد أنشد هذين البيتين - وهما مما أنشأ أخيرا - قبل الموت بعشر دقائق :

سرود رفته باز آيد كه نايد نسيمى از حجاز آيد كه نايد
سرآمد روزگار اين فقيرى دگر داناي راز آيد كه نايد

وترجمتها

نغمات "مضين لى هل تعود أنسيم من الحجاز يمود ؟
أذنت عيشتى بوشك رحيل العلم الأسرار قلب "جديد؟"

وقد زرت من بعد قبره وداره • ولقيت ولده جاويد وخادمه على بخش
وسيقراً القارىء هذا فى الفصول الآتية •

— ٦ —

ولما سافرت الى مدينة دهلى عام ١٩٤٧ م ، عزمت على السفر الى
لاهور ، على بعد الشقة وظهور الفتن والقلق فى أرجاء الهند • وما كان
مثلى ، وقد قدم الهند ، ليصبر عن زيارة ضريح اقبال وداره • فأعددت
للسفر الى لاهور ، ونظمت أربعة أبيات ، وسألت تقاشا فى دهلى القديمة
أن ينقشها على لوح من الرخام ، وحملتها معى وسلمتها الى القوام على
ضريح اقبال لتوضع هناك • والأبيات :

عربى يهدى لروضك زهرا	ذا فخر بروضه واعتزاز
كلمات تضمنت كل معنى	من ديار الاسلام فى ايجاز
بلسان القرآن خطت فيها	نصحات التنزيل والأعجاز
فأقبلتها ، على ضآلة قدرى	فهى فى الحق «أرمغان الحجاز»

« وأرمغان الحجاز » فى البيت الأخير معناها هدية الحجاز • وهو اسم
آخر منظومة نظمها اقبال • وقد نشرت بعد وفاته

وكان من عجائب الاتفاق أن بلغت لاهور قبل ذكرى وفاة اقبال بيومين •
ولم أكن أعرف موعد هذه الذكرى • وكانت حفلة لى ولوفد من ايران
رئيسه الصديق على أصغر حكمت ، عند ضريح اقبال • وكانت حجرة
الضريح لم تكمل بناء •

وقد ألقى كلمة فى هذا الاحتفال جاء فيها :

اقبال !

يا شاعر الاسلام ! أنرت مقاصده ، وجلوت فضائله وأضأت سراجہ ،

وأوضحت منهاجه ، ودعوت المسلمين الى المجد الذى يكافئ دعوتهم ،
ويلائم سنتهم ، ويناسب تاريخهم •
اقبال !

يا شاعر الشرق ! أشدت بماثره ، وفخرت بروحانيته ، وأخذت على
العرب المادية الصماء ، والغرور والكبرياء ، ونقدت قاداته ، وزيتت ساداته ،
دحضت باطلهم وأبطلت سحرهم ، ووقفتهم للحساب العدل ، وأبنت مالهم
وما عليهم وما أحسكوا وما أساءوا •
اقبال !

يا شاعر الحياة ! عرفت معناها وكشفت عن قواها ، وبصرت بمجراها
ومنتهاها ، وأوضحت منارها وصواها •
اقبال !

يا شاعر النفس ! أثرت خفاياها ، وأظهرت خباياها ، وأبنت ما فى
« خودى » من كهرباء ، فيها القوة والنار والضيء ، ودعوت الى اثاره
معادنها ، واستخراج دفائنها • وقلت :
بركش أين نغمه كه سرمايه آب و گل تست
أى زخود رفته تهى شو ز نوای ديگران^١

اقبال !

يا شاعر بيخودى ! أوضحت كيف يكون الايثار ، وكيف ينظم الفرد
فى الجماعة •

اقبال !

يا شاعر الحرية ! أشدت بذكرها ، وأكبرت من قدرها ، ودعوت اليها
كاملة ، وأردتها شاملة ، وأبغضت العبودية فى شتى مظاهرها ، ومختلف
صورها •

(١) انظر ترجمتها صفحة ٧

اقبال !

يا شاعر الجهاد والدأب ، والكدح والنصب . قلت ان الحياة جهاد مستمر ، وكفاح لا يستقر ، وان الحياة في الموج الهائل ، والموت في سكون الساحل .

اقبال !

يا شاعر التجديد والتقدم ! قلت ان الحياة مجددة تكره التكرار ، ومقدمة تأبى التقهر . ودعوت الانسان أن يمضى قدماً في الحياة مقدماً ، له كل حين فكرة ، وفي كل ساعة نعمة . وبينت أن الاقدام والابتكار ، هما فرق ما بين العبيد والأحرار .

اقبال !

يا شاعر الجمال !

صورته في الأرض والسماء ، واليبس والماء ، وفي الصحارى الجرداء ، والحدائق الغناء ، وفي الصبح والمساء ، والضياء والظلماء ، . وصورته في كل خَلْق كريم ، ومنهج قويم .

اقبال !

يا شاعر الجلال ! جلوته في الخالق والخليقة ، وفي الهمم العالية ، والعزائم الماضية ، والأمانى الكبيرة والمقاصد الجليلة .

اقبال !

أيها الشاعر الملهَم ! بانث لك الأسرار ، ورُفِعت عن الغيوب لك الأستار . فرأيت الباطن كالظاهر ، وأدركت المستقبل كالحاضر .

اقبال !

يا شاعر الاسلام ويا شاعر الشرق ويا شاعر الحياة ويا شاعر الانسانية ويا شاعر الحرية والجهاد والتقدم والاقدام ويا شاعر الجمال والجلال ! .
لقد حيثك على بعد الديار وشَطَّ المزار ، وأشدتْ بذكرك وعرفت بقدرك وأهديتْ اليك اللمعات ، جواباً لمنظومتك « أسرار خودى

وأنا اليوم أحييك على القرب • وسَّيان فى عظمتك القريب والبعيد •
ان هذا الضياء لا يقيس المسافات ، ولا تبعد عليه الغايات

ان هذا الفكر الذى يطوى الآفاق ، ويخترق السَّبْع الطباق ، لا تختلف
عنده الأرجاء ، فالدانى والنائى لديه سواء •

كان من مثاى أن أزورك فى حياتك ، ثم تمنيت أن أزور ضريحك بعد
ماتك • وهأنذا أشرفه بأن ألقى أمامك هذه الكلمات وأودع ضريحك
هذه الزهرات :

عربى يهدى لروضك زهرا ذا فخار بروضه واعتزاز

(الأبيات المثبتة صفحة ١٠)

لقد ضمنت لك آثارك الخلود فى هذه الدنيا ، وعند الله جزاؤك فى
الأخرى ، جزاء المجاهدين المخلصين

« والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبيلنا • وان الله لمع المحسنين »

* * *

ثم ذهبت أنا والصدى على أصغر حكمت الى دار اقبال التى سكنها
آخر عمره ومات فيها ، وهى دار صغيرة المبنى كبيرة المعنى ، تأخذها العين
فى نظرة ، ويسافر فيها الفكر الى غير نهاية •

وقابلنا هناك جاويد ، وهو ابن الشاعر • ذكره فى كثير من شعره ،
وأعرب عن أمله فيه ، ورجائه فى مخايله ، وسَمَّى باسمه المنظومة الرائعة
« جاويد نامه » • وجاويد معناه الخالد •

ورأينا حجرة كان الشاعر الخالد يكتب فيها شعره ومقالاته ، وفيها
فاضت روحه • وهى حجرة يستطيع شاعر بليغ أن يفصلها أياتا
خالدات ، وقصائد سائرات •

لبشنا حيناً في الدار ذات الذكر والمبَر نحدث جاويد . وأهدى اليها
صورة والده . وانها لذكرى عظيمة : صورة اقبال يهديها ابن اقبال في
دار اقبال .

— ٧ —

، وكان علمي بأقبال يزداد على مر الزمان ، فيزداد شففى به ، واكبارى
اياه ، واماى بذهبه في هذه الحياة . فترجت من شعره . وهمت بأن
أترجم ديوانا من دواوينه . فلم يتسع وقتى ، ولا تسنى مطلبى .

ولما بعثت الى باكستان سفيرا لمصر هاج نفسى القرب ، ولقيت بين
الحين والحين من يحدث عن اقبال ومن رآه . فرحزحت الشواغل عن
ساعات من الوقت شغلت فيها بأقبال . فترجت ديوانين من دواوينه .
ترجت رسالة المشرق وطبعتها في كراچى حين الذكرى الثالثة عشرة لوفاة
الشاعر . ثم ترجمت ضرب الكليم ونشرته في القاهرة حين الذكرى الرابعة
عشرة . وأترجم اليوم والله المستعان ديوانين : أسرار خودى ورموز بى
خودى . وقد قاربت الفراغ منهما والحمد لله . وكم شاركت في الاحتفال
بأقبال فقلت وسمعت . وكم جالست أعباء اقبال ومنهم من عاشره ووعى عنه
عن كسب ، وعرف معيشته في داره ، ومجالسه بين أصحابه وسُمّاره .
ولا تزال مجالس أصدقاء اقبال تجتمع عندى كل أسبوع مرة أو مرتين
فقرأ شعره ونروى أخباره ، ونستمع الى حديث العارفين بفلسفته ،
المتوفرين على استكناه حقائقها واستجلاء أسرارها .

وكثيرا ما سمعت من هؤلاء الاصدقاء الذين سميتهم دراويش اقبال ،
أن هذه المجالس أحب شىء اليهم في هذه الدنيا . وأنها عندى لكذلك .
هذه كلمة أردت أن أعرف بها القراء اقبالا كما عرفته ليقبلوا على
قراءة تاريخه وفلسفته وشعره في الفصول الآتية .

— ١٤ —

ابواب الأول

سيرة اقبال

الفصل الأول

أسرته

يرجع نسب أسرة محمد اقبال الى براهمة كشمير . أسلم أحد أجداده قبل ثلاثة قرون في عهد الدولة المغولية ، كبرى الدول الاسلامية التي قامت في الهند . أسلم هذا الجد على يد الشيخ شاه همدانى أحد أئمة المسلمين في ذلك العصر .

وهاجر محمد رفيق جد محمد اقبال من قرية لوهر في كشمير الى مدينة سيالكوت من ولاية بنجاب . وكثير من أهل كشمير يهاجرون الى سيالكوت طلبا للرزق . اذ كانت أقرب المدن الى بلادهم ، ومنها ينتشرون في أرجاء الهند . فكثير من أهل سيالكوت يرجعون الى أصول كشميرية .

حلّ محمد رفيق في سيالكوت ومعه أخوة ثلاثة أحدهم الشيخ محمد رمضان وكان صوفياً ألف كتباً كثيرة باللغة الفارسية .

وسعى محمد رفيق في طلب الرزق يعينه ابنه محمد نور أبو محمد اقبال

وقد ذكر اقبال في مواضع من شعره انه من سلالة البراهمة ، لا يفخر

بهذا الأصل بل يفخر بأن رجلا من سلالة البراهمة أدرك من حقائق الاسلام وأسراره ما أدرك .

يقول في ضرب كلیم يخاطب « سَيِّداً مصاباً بالفلسفة » :
وانتى فى الأصل سَومَناتى الى مناة نسبى واللات
وانت من اولاد هاشمى وطينتى من نسل برهمى
ويقول فى آيات أخرى عنوانها : الى أمراء العرب :

هل يَسعِدُ الكافرَ الهنْدِيَّ منطِقَهُ
مخاطباً أمراء العرب فى أدب

ويقول فى پیام مشرق :

انظر الىّ فما ترى فى الهند غيرى رجلا من سلالة البراهمة عارفا بأسرار
الروم وتبريز^١
وفى شعر آخر :

قد قامر الأمراء بالدين والقلب فى حَلْبَةِ السياسة . فما ترى غير ابن
البرهمن مَحْرَمًا للأسرار^٢

ويقول فى بال جبريل فى قصيدة مسجد قرطبة :
أنا كافر هندى فانظر الى شوقى وذوقى ، ملء قلبى الصلاة والسلام
وعلى شفتىّ الصلاة والسلام^٣

ويقول فى هجرة أسرته من كشمير :

لقد هجر الدرّ أرضَ اليمن ونافجةُ المسك أرضَ الختن
وبلبل كشمير فى الهند ثاو بَعِيداً من الروض خارَ الوطن^٤

(١) مرا بنكر كه درهندوستان ديكر نمى بينى - برهمن زادة اشنا رمز روم وتبريزست
ويشير بالروم الى جلال الدين الرومى الصوفى الشاعر المعروف ، ويقصد بتبريز
شمس الدين التبريزى الصوفى مرشد جلال الدين .

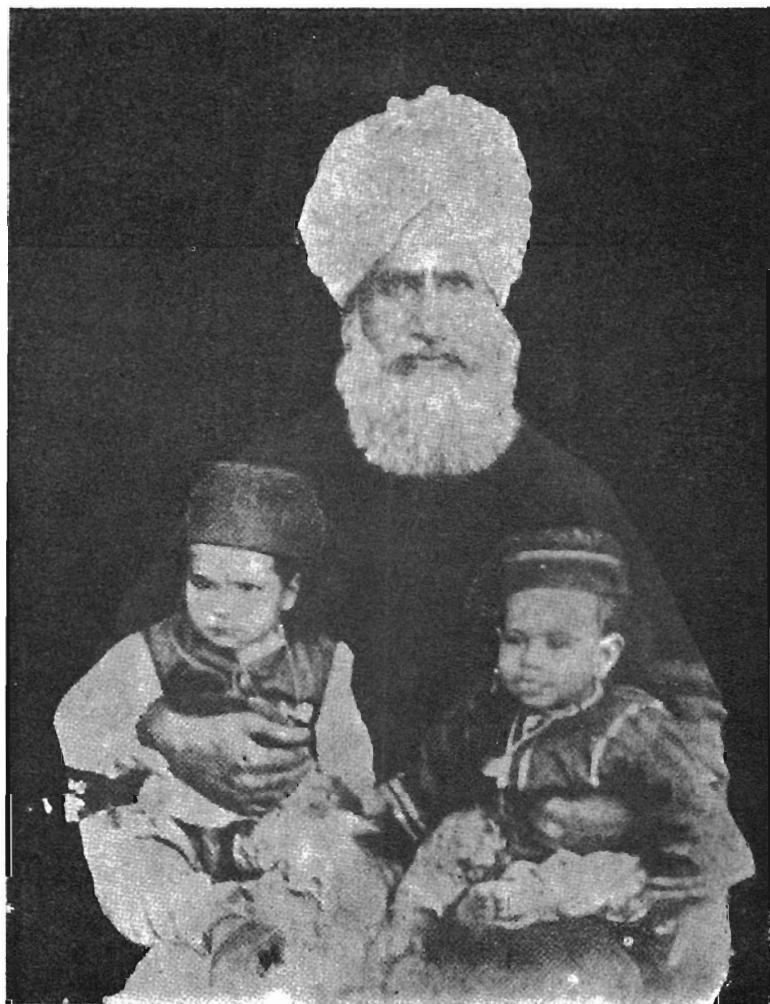
(٢) ميرومزا در سياست دل ودين باخسه اند

جز برهمن پسرى محرم اسرار كجاست ؟

(٣) كافر هندى مون مين ديكه مرا ذوق وشوق

دل مين صلوة مدرود : لب به صلوة ودرود

(٤) موتى عدن سى لعل هى يمن سى دور يا نانه غزال هوا هى ختن سى دور
هندوستان مين آنى هين كشمير چهورك بلبل نى اشياه بنايا جمن سى دور



والد محمد اقبال وعلی حجره حفیدان له هما : « افتاب » ابن اقبال
(علی یوینہ) و « اعجاز » ابن اخی اقبال (علی یسارہ)

والدا اقبال

كان والداه صالحين تقيين . فأما أبوه فكان متصوفا عاملا كادحا في كسب رزقه يعمل لدينه ودنياه .

ويؤثر عنه أنه قال لاقبال ، حين رآه يكثُر قراءة القرآن : ان أردت أن تفقه القرآن فاقرأه كأنه أنزل عليك .

وهذه قصة نظمها اقبال في كتاب رموزٍ بيخودي :

« سائل كالقضاء المبرم . طرقت بابنا طرقتا متواليا . فثرت غضبا وضربته بعصا على رأسه ، فتبعثر ما جمعه بسؤاله . والعقل أيام الشباب لا يفرق بين ضلال وصواب — ورآني والدي فاغتم - واربدًا وجهه وتأوه . وسال الدمع من عينيه . واضطربت روحى العافلة وطار لثبي .
قال أبى :

تجتمع غدا أمة خير البشر ، تجتمع أمام مولاه ، ويحشر غزاة الملة البيضاء وحكماؤها والشهداء ، وهم حجة الدين وأنجم هذه الأمة، والزهاد والوالهون والعلماء والعصاة .

ويأتى هذا السائل المسكين صائحا في هذا المحشر شاكيا .
فماذا أقول اذا قال لى النبى :

ان الله أودعك شابا مسلما فلم تؤدبه بأدبى ، بل لم تستطع أن تجعله انسانا .

فتمثل عتاب النبى الكريم ومقامى فى خجلى بين الخوف والرجاء .
تفكر قليلا يا بنى . اذكر اجتماع أمة خير البشر .

انظر يا بنى الى شيبى ، واضطرابى وقلقى . ولا تقس على أهلك ولا تفضحه أمام مولاه . انك كيمٌ فى غصن المصطفى . فكن وردة من نسيم ربيعه . خذ من ربيعه نصيبا من الريح واللون . لا بد لك أن تظفر من خلقه بنصيب . «

وأم اقبال كانت تقيّة ورعة حتى كانت تتحرج أن تأكل من وظيفة زوجها اذ كان يعمل مع رئيس عثرف بأكل الرشوة . ولم تكن وظيفة زوجها من مال هذا الرئيس ، ولكن كذلك كان ورعها .

ولاقبال في أمه قصيدة طويلة من ديوانه (بانكك درا) يقول فيها :
« ساميتُ النجم بتريتك ، وكان فخر الأباء والأجداد بيتك
كانت حياتك صفحة مذهبة في كتاب الكون ، كانت قدوة في الدين
والدنيا » . ١

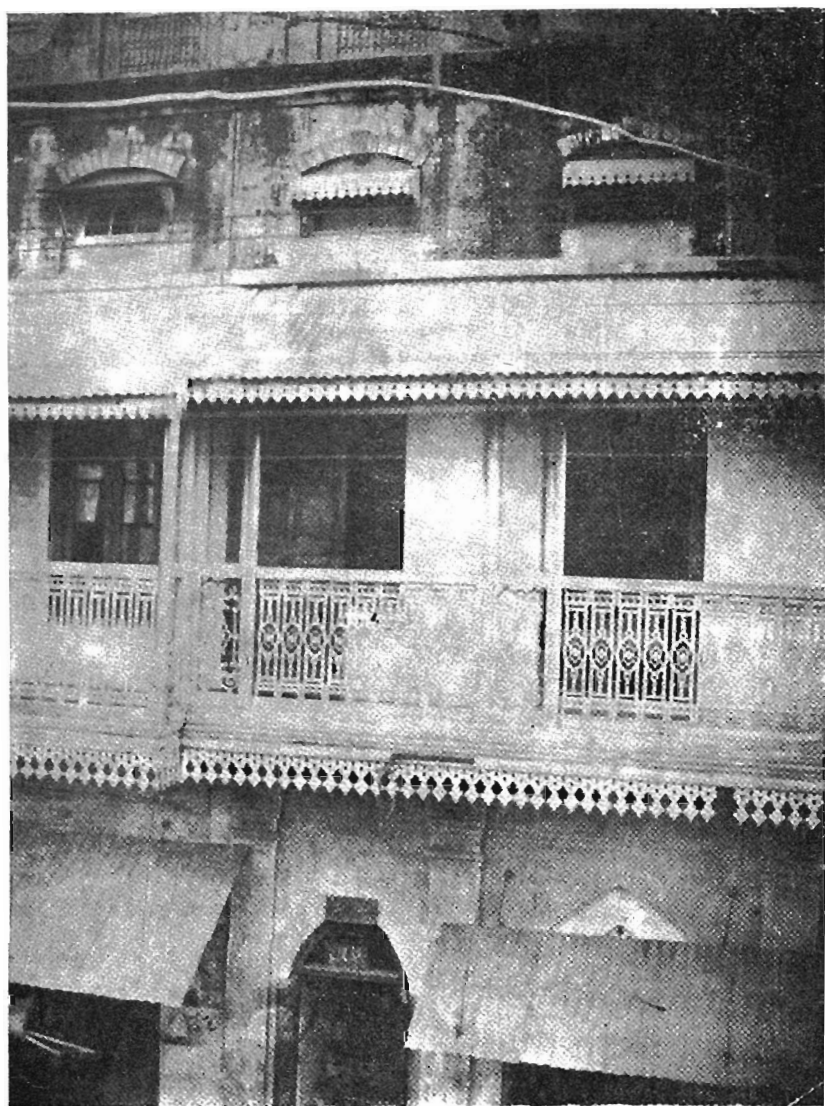
عمر محمد نور والد اقبال زهاء مائة سنة ، وكفّ بصره في سن الثمانين . وتوفى ١٧ آب سنة ١٩٣٠ ، وتوفيت والدته اقبال في ١٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ وسنها ثمان وسبعون سنة ٢ .

مولد اقبال

في هذا البيت الطاهر ولد وليد سته أمه محمد اقبال . ويروي أن الده رأى قبل مولده حمامة بيضاء ناصعة تطير فتقع في حجره وتسكن اليه ، وعبرت الرؤيا أنه سيرزق ابنا عظيم الجَد والاقبال يعلو على الناس .

ولد محمد اقبال في الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٢٨٩ هـ (٢٢ شباط سنة ١٨٧٣ م) . ولم يأبته أحد بمولد هذا الطفل الا كما تآبه أسرة فقيرة بمولد ابن فيها :

(١) تربيت سى تيرى مين انجم كاهم قسمت هـوا
كهر تيرى اجدادكا سرمايه عزت هـوا
دفتر هستى مين نهى زدين ورق تيرى حيات
تهى سراپا دين ودنيا كاسبق تيرى حيات
١٢ كتب الى بتاريخ وفاة الوالدين و سنهما حفيدهما اعجاز احمد



الدار التي ولد فيها محمد اقبال في سيالكوت

ولكن الله تعالى كان يعلم يوم مولد اقبال أن قد وُلِدَ في هذا البيت الصغير من مدينة سيالكوت رجل يعلو فكره وقلبه على حدود الأوطان والأزمان ، أن قد ولد فيلسوف نابغ وشاعر مُبدع من الذين يَهْجُمُ اللهُ البشر في العصر بعد العصر ليخلِّقوا ويَجِدِّدُوا وَيَهْدُوا على هذه الأرض .

أن لهذا الطفل الوليد لأثرا باقيا في تاريخ أمته وتاريخ المسلمين وتاريخ البشر أجمعين .

الفصل الثاني

في سيالكوت

من الميلاد الى سن اثنتين وعشرين

بدأ اقبال التعليم في طفولته على أبيه ، ثم أدخل مكتباً ليتعلم القرآن . ولا ندري كم حفظ اقبال من كتاب الله في طفولته . ولا ريب أنه حفظ كثيرا منه في هذه السن وبعدها ، إذ كان في كِبَرِهِ يَعْلَمُ القرآن . وكثرة اقتباسه من القرآن في شعره تدل على أن القرآن كان على قلبه ولسانه . ثم أدخل الصبي مدرسة البعثة الاسكوتية^١ في سيالكوت . ويقال ان أباه أدخله هذه المدرسة ليكون في رعاية صديقه مير حسن . وكان أستاذا أديبا متضلعا في الأدب الفارسي عارفا بالعربية .

وقد امتاز اقبال بذكائه وجده ففاق أترابه ونال جوائز كثيرة . ومن نوادره أنه وهو في سن العاشرة ، جاء الى المدرسة متأخرا فسئل عن تأخره فقال : الاقبال يأتي متأخرا^٢ .
وحيثما كان في السنة الرابعة - في نظام التعليم في هذه المدرسة . وليست بعيدة من الرابعة في التعليم الابتدائي عندنا - أخذ والده الى

(١) Soottish Mission School

(٢) اقبال تودير هي مين آتا مي

صديقه مير حسن وقال أريد أن تعلّمه الدين بدل ما يتعلمه في المدرسة .
فأجاب الأستاذ مبتسما : هذا الصبي ليس لتعليم المساجد . وسيبقى في
المدرسة .

ولبت اقبال منذ ذلك الحين الى أن أتم الدراسة في كلية البعثه
الاسكوتية في رعاية مير حسن وتأديبه .

ورأى الأستاذ من ذكائه ومخايله ، بل من قوله وفعله ، مازاده اعجابا به
وتأميلا فيه . فعنى بتلقيه الدين والعربية والفارسية .

ولما رآه ينظم الشعر وعرف موهبته فيه ، أرشده وحرصه ، وحسن
له أن ينظم باللغة الأردية مكان البنجابية .

مير حسن

يقرن ذكر مير حسن بسيرة اقبال ويشاد بأثر هذا الأستاذ في تأديب
تلميذه . فيحسن أن نعرف به بعض التعريف : ١

هو من المنتسبين الى آل البيت . وكان أستاذ اللغة العربية في كلية
سيالكوت ، وكان متضلعا في الأدب الفارسي . وكان عكلا من أعلام البلد،
يعرفه الصغير والكبير ، مهيا بمجلا . وكان ضعيف البصر يمشي الهوينى
متوكئا على عصا طويلة . ويسير من داره الى الكلية مسافة ميلين في ساعة
وكان لا يتأخر عن مواعده دقيقة .

وقد اقترح عليه عميد الكلية أن يركب عربة على أن تؤدّى له الكلية
أجرتها . فقال له أتريد أن أفقد في العربات ما بقى لى من قوة ؟ . وكان
مضرب المثل في ضبط الوقت والتزام المواعيت . واتفق أن تأخر مرة عن
اجتماع في الكلية دقيقتين . فكان هذا حديثا عجيبا بين زملائه . ومن لطائفه
أن عميد الكلية قال له حينما جاء متأخرا :

١ - من فصل من ملفوظات اقبال كتبه الاستاذ عبد الواحد وكان من
تلاميذ الكلية التي كان فيها الاستاذ مير حسن . دخلها سنة ١٩١٧

لقد لبنا دقيقتين ننتظرك . فأجاب فوراً : لا بأس لقد انتظرتك سنين
حتى جئتَ الى هذا العالم — وكان العيد أصغر منه سنًا

وقد بلغ من هيئته أن الأساتذة والطلبة كانوا اذا رأوه قادما خلكوا له
الطريق أو افسحوا له . وكان الطلبة الذين يقرأون عليه العربية يجدون منه
شدة وتقرباً أول الأمر . فاذا جازوا المرحلة الأولى أفادوا كثيراً من غزارة
علمه .

ولم يكن الشيخ ، على هذا ، غليظاً جافاً بل كان ظريفاً فكها في مواضع
الظرف والتفكه .

وقد وفي اقبال لاستاذة فأشاد بذكره في شعره . ولما عرض على اقبال
لقب « سير » كما ترى فيما يأتي ، اشترط لقبوله أن يمنح أستاذة لقب
شمس العلماء فأجيب الى ما اشترط .

نظم الشعر

وكان اقبال في هذه المرحلة من عمره ينظم الشعر ، ويزداد على مر-
الايام احساناً فيه . وكان يرسل بين الحين والحين شعره الى الشاعر داغ أحد
شعراء الاردية النابهين . ونظر الشاعر الكبير في قصائد الشاعر الشادى
ثم كتب اليه أن لا ترسل الى - شعرك فما يحتاج الى تنقيح .

وعاش داغ حتى ذاع صيت اقبال وبلغ في الشعر ما بلغ . فكان يفخر
بانه نقح شعر اقبال في صباه .

وفرغ اقبال من الدرس في الكلية الاسكوتية سنة ١٨٩٥ ، وسنته
زهاء اثنتين وعشرين سنة .

الفصل الثالث

في لاهور الى سنة ١٩٠٥

انتقل الشاب الذكي الطليعة الشاعر الذي فاق أترابه في المدارس ،
انتقل الى لاهور حاضرة ولاية بنجاب واحدى مدن الهند الكبرى .
وهي أول مدينة في الهند اتخذتها دولة أسلامية دار ملك .
صارت عاصمة الدولة الغزنوية حينما غلبت على افغانستان فلم يبق لها
الا ما فتحته من أرض الهند . وبقيت هذه المدينة الكبيرة في مقدمة مدن
الهند حضارة وعلما وفنا .

وكانت حين قصد اليها اقبال قبل نصف قرن ، مباءة علم وأدب ، تعمل
بجامعها في نشر الأدب الأردى واحلاله محل الادب الفارسى . وتألقت فيها
بجامع أدبية تدعو بين الحين والحين الى محافل ينشد فيها الشعراء عيون
أنعارها . ويسمى هذا مشاعرة، والمشاعرة سئة شائعة في باكستان والهند
حتى اليوم .

دخل اقبال كلية الحكومة في هذه المدينة ليتم تعلمه وجدء في الدرس
كدأبه . وكان موضع الإعجاب في ذكائه وعلمه وأدبه .
ومما يؤثر عنه في ذلك الحين ، وهي أثاره ذات دلالة بليغة ، أنه أخذ على
أحد علماء الدين كذبا فبلغ من نفسه هذا المنكر . فلبث أياما مكتئبا حتى
سأله أستاذه توماس آرنلد فقص عليه القصة . فقال الأستاذ: ستزى كثيرامن
هذا في حياتك .

استمر اقبال في دراسته حتى نال الدرجة التي تسمى في نظام التعليم
الانجليزى B.A. . وجلئى في امتحان العربية والانجليزية ، ونال جوائز
التفوق وذلكم سنة ١٨٩٧ م

ثم تابع الدراسة الى درجة M.A. (أستاذ في الفن -) في الفلسفة حتى أتم دراسته مُجَلِّيًا نائلاً جائزة أخرى من الكلية . وتلمذ اقبال في هذه الكلية لاستاذ الفلسفة الاسلامية السير توماس آرندل .

توماس آرندل

ويجب على أن أسجل ذكرا عن هذا الأستاذ الجليل وفاءً بحقه على اقبال وعلى المسلمين كافة :

كان أستاذ العربية في جامعة لندن ثم أستاذ الفلسفة في جامعة عليكره فكلية الحكومة في لاهور .

وكان واسع العلم ثبتا متواضعا منصفاً نصيراً للمسلمين محباً للحضارة الاسلامية .

وقد ألف كتابه «دعوة الاسلام»^١ ليبين أن الاسلام انتشر بالدعوة لا بالقوة ، ففصل تاريخ انتشار الاسلام ولا سيما في الجهات التي لم يكن للمسلمين فيها سلطان . وقد أخبرني أنه تعلم اللغة الهولندية ليقرأ السجلات التي تبين انتشار الاسلام في جزيرة جاوه وما يتصل بها . وكتابه هذا وحيد في بابه لم يؤلف مثله مسلم ولا غير مسلم .

ولما ألغى مصطفى كمال الخلافة كتب كتابه « الخلافة » وهو شاهد بسمة علمه ونفاذ فكره .

وقد عرفته في لندن في مدرسة اللغات الشرقية فأنست به وأحبيته وجرتأني على صحبته لين جانبه ودماثة خلقه .

وكنت أسأله عمّا يشكل على - وأنا أكتب رسالتي في (التصوف وفريد الدين العطار) .

وقد عرفت فيه التواضع والتثبت فكان يحب أن يقول لا أدري ان لم يكن على بينة مما يسأل عنه . وكان كثيرا ما يسألني حين أحدثه في أمر : أنت على يقين من هذا ؟

وكان يحب العادات الاسلامية ويميل الى ازيائنا وسنننا . اذكر اني
تعشيت معه في داره فبدأ الطعام قائلاً باسم الله ، وودعنى حين الانصراف
قائلاً : في امان الله .

وجاء الى مصر بدعوة من جامعة القاهرة وآثر النزول في حلوان ، وهى
دار اقامتى ، ثم انتقل الى المعادى . وكنت أقبله بين الحين والحين وكان
يزورنى في ليالى رمضان التماساً لسماع القرآن .

وذهبت اليه مرة في الفندق الذى نزل به في حلوان فأخرج من حقيبته
عمامة وطربوشاً . وقال أرنى كيف تكوّر العمامة . ثم قال : أرنى أوثر
العمامة والجبّة وأشعر حين ألبسهما أنى فى زى - أستاذ كما أشعر أنى صبى
حين ألبس هذه الملابس ، وأشار الى الملابس الافرنجية التى كان يلبسها .

وأذكر أنّا اجتمعنا على مائدة فى دارنا ومعنا الكبتن كنجج الانجليزى .
وكان هذا معنيًا بالبلاد العربية . وقد سمى فى تأييد الأمير عبد الكريم
حينما حارب الاسبان فى الريف - فقال لى كنجج : قرأت التاريخ فأبنتنى
أى - الفريقين كان أكثر ساحة وسجاجة المسلمون أم النصارى ؟ قلت :
يجيب هذا السؤال أستاذنا توماس آرنولد . فقال الأستاذ فوراً : لا ريب
أن المسلمين كانوا أكثر تسامحاً من النصارى .

وقال لى يوماً وقد ذكرنا اقبالا : انه تلميذى . قلت هو اذا شاب - . قال
أحسبه شاباً بأنه كان تلميذى . أنت لا تدري كم سنّى .

هذه ذكر لا تعرف بالسير توماس آرنولد ، ولكنى أذكرها
اعتزازاً بها ، وجباً لذكر هذا الأستاذ الكريم أستاذ اقبال ، ولعل أحد
الكاتبين عنه يجد فيها فائدة .

هذا الأستاذ عرف اقبالا وقدر مواهبه فقرّبه وحرّضه على الاستزادة
من العلم ، وتوكلت بينهما صداقة ، صداقة التلميذ المتطلع البار - والأستاذ
العالم المخلص .

فلما فارق آرنولد لاهور راجعا الى وطنه نظم تلميذه الوفى - قصيدة

عنوانها (نواح الفراق) أعرب فيها عن حبه أستاذه وأكباره آياه
وتحسره لفراقه .

بعد اتمام الدراسة

فرغ اقبال من تحصيل العلم في الكلية فاختر لتدريس التاريخ
والفلسفة في الكلية الشرقية في لاهور^١ . ثم نُصب لتدريس الفلسفة
واللغة الانكليزية بكلية الحكومة التي تخرج فيها .

وقد نال أعجاب تلاميذه وزملائه بسعة علمه وجسُن خلقه ، وسكّاد
رأيه ، واتجهت الأبصار اليه ، وذاع ذكره حتى صار من أساتذة لاهور
الناهين .

وفي ذلك الحين دخل في خدمته خادمه الوفيّ علي بخش ، وأستاذن
القاريء في التعريج علي علي بخش ، خادم اقبال الأمين الذي صحبه
طول حياته وصحب أولاده بعد مماته . وملازمة هذا الرجل اقبالا منذ
دخل في خدمته حتى فرق بينهما الموت ، يدل علي لين اقبال ويُسرمعاملته .
روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : خدمت النبي صلى الله عليه
وسلم عشر سنين فما قال لى في شيء فعلته لم فعلته ولا في شيء تركته
لم تركته^٢

وقد حدثنى بعض من صحبوا أقبالا أو زاروه أنه كان يجلس في داره
فيدخل عليه من يشاء فسأله عما يشاء وعلي بخش قريب منه يلبى دعوته
ويقضى ما يأمره به ويحرص علي أن يمدّ أرجلته بالنار كلما خبّت .
وكان الشاعر مولعا بها لا يكاد يفتر عنها في مجلسه .

واقترن ذكر علي بخش بكثير من سيرة اقبال . وقد حرصت علي أن

(١) Oriental College

(٢) هذا لفظ الحديث او قريب منه .

أراه في دار أقبال حينما ذهبت الى لاهور فلقيته وأخذت صورتى معه في ربيع السنة الماضية . وراسلته بعد من كراچى .

في محافل الادب في لاهور

لبث الشاعر النابغ في لاهور عشر سنين ، منذ قدم اليها من سيالكوت الى أن سافر الى أوروبا .

أتم دراسته في كلية الحكومة ثم درس في الكلية الاسلامية فالكلية التى تخرج فيها . فعرفت مدارس لاهور ومجامع الأدب فيها شابا وسيما قويا يتقد ذكاء وشوقا الى المعرفة ، ويتطلع الى التزود من العلم الى غير نهاية .

وقد دوتى صوت أقبال في محافل الأدب يُنشد قصائده . وحرصت الصحف على نشر شعره . وأيقن الشعراء والعلماء أن لهذا الشاب شأنًا ، ولكن لم يحزروا الشأن البعيد الذى يبلغه الشاعر . اذ كان شأوا لا يدركه الا أقبال وقليل من أمثاله في تاريخ البشر .

وأول قصائده الرنانة التى ألقىت في جمع حاشد قصيدته التى أنشدها في الحفل السنوى لجماعة حماية الاسلام في لاهور (أنجمن حماية اسلام) سنة ١٨٩٩ وعنوانها أنين يتيم (نالهء يتيمى) وفي السنة التالية أنشد في حفل هذه الجماعة قصيدة يخاطب فيها يتيم هلال العيد .

ومن القصائد التى نبهت الناس اليه قصيدة هيمالا التى أنشدها في أحد المحافل الأدبية . وقد سأله كثير من أصحاب الصحف أن ينشروها فأبى . ثم أذن بنشرها في صحيفة المخزن سنة ١٩٠١ ثم نشرت قصائده في صحف أخرى من بعد

وكذلك أنشأ اقبال في ذلك الحين قصائد تعرض فيها للسياسة .

وترجم اقبال في هذه المرحلة من عمره قصائد من اللغة الانكليزية . ونشر أول كتاب له . وهو كتاب في الاقتصاد باللغة الأردنية .

وفي هذه السنين كان يفكر في نظم ملحمة على غرار ملثن الشاعر
الانكليزي .

كتب الى أحد أصدقائه سنة ١٩٠٣ :

أنا منذ زمن طويل أنزع الى أن أكتب على طريقة ملثن (الفردوس
المفقود وغيره) وأحسب أن الوقت قد حان . فما تمضى ساعة هذه الأيام
دون تفكير في هذا الأمر . لبثت أفكر في هذا طول خمس سنين أو ست
ولكن لم أشعر بالنزوع اليه كما أشعر اليوم .

الفصل الرابع

سفره الى أوروبا

عزم اقبال على الرحيل الى أوروبا للتزود من العلم ، اتباعا لمشورة السير
توماس أرنولد ، وسنّه يومئذ اثنتان وثلاثون سنة .

وخرج معه بعض أصدقائه لتوديعه حتى دهلي . وبلغ أقبال وصحبه
مدينة دهلي صباح الثاني من شهر أيلول سنة ١٩٠٥ . فاستقبلهم في محطة
دهلي جماعة فيهم السيد حسن نظامي الدهلوي من أحفاد نظام الدين
أوليا . وبعد أن استراح قليلا في دار أحد مستقبليه توجه الى مزار
الشيخ نظام الدين أوليا ، وهو من أعظم مزارات الهند مكانة وأكثرها
قصدًا ١ وهو في أطراف مدينة دهلي .

وفي طريقه سرّ على مزار السلطان همايون ثاني ملوك الدولة المغولية .
وهو أول مزار شَيّد للملوك هذه الدولية في الهند . فقد توفي أبوه بابر
مؤسس الدولة في كابل ودفن فيها ٢ .

(١) انظر سيرة نظام الدين ووصف مزاره في كتابي « الرحلات الثانية »

(٢) انظر وصف المزار وصاحبه في الرحلات الثانية

ولما بلغ مزار نظام الدين أنشد قصيدة باللغة الأردية انشادا شاجياً •
يقول في هذه القصيدة بعد مدح نظام الدين :

« أسير عن الوطن الجميل ، تجذبني لذة شراب المعرفة • اني شجرة
برية ترمق سحاب الجود ، لم يحوجني الله الى بستاني • ويقول :
مئيتي أن أكون خادم خلق الله ما حيت ، لا أتمنى عمرا خالدا •

مئيتي أن أضع جبينى على أقدام الوالدين ، لقد صيرنى الولك محرم
أسرار الحب » •

وفي هذه القصيدة تفحات من شعر أقبال ومن فلسفته ، الفلسفة والشعر
للذين شاعا من بعد فملا الآفاق نورا ونارا •

وخرج من المزار الى دار السيد حسن نظامى فتلبث بها قليلا وسمع
أنشاد.قوال هناك ١ •

ثم رجع الى المدينة دهلى ومر- في طريقه على قبر الشاعر الكبير الذى
هو أعظم شعراء المسلمين فى الهند قبل أقبال ، ميرزا أسد الله غالب المتوفى
سنة ١٨٦٩ م •

وقد استأذن القوال فى انشاد بيت لغالب . واستمع اقبال مأخوذا بالشعر
والذكرى • فلما هم الحاضرون بالانصراف قبّل قبرَ الشاعر العظيم
وانصرف • ومثل أقبال يقدر شعر غالب ويخضع لذكراه ويلثم قبره •

اقبال فى اوربا

توجّه اقبال الى بمباى فركب سفينة قاصدا انكلترا • والتحق بجامعة
كمبردج لدرس الفلسفة ، وتلمذ للأستاذ الدكتور ميكتاكرت • وعكف
على المطالعة فى مكتبة الجامعة • ونال من هذه الجامعة درجة فى فلسفة

(١) القوال مطرب له طريقة فى الفناء خاصة . أكثر غنائه فى ذكر الله ومدح الرسول

الأخلاق ، ثم سافر الى ألمانيا فتعلم الألمانية في زمن قليل والتحق بجامعة ميونخ . وكتب رسالته « تطور ما وراء الطبيعة في فارس » وهى أول كتاب في الفلسفة عرّف الناس بمقدرة اقبال على النظر والبحث ، وسعة اطلاعه في الفلسفة . وقد أهدى الكتاب الى أستاذه توماس آرنلد . ونشره في لندن .

عاد اقبال الى لندن فدرس القانون وجاز امتحان المحاماة والتحق كذلك بمدرسة العلوم السياسية زمننا .

وكان الأستاذ آرنلد حينئذ أستاذ العربية في جامعة لندن واضطر الى الانقطاع عن عمله ثلاثة أشهر فاختر اقبالا ليخلفه في عمله

ولم يأل محمد اقبال ، وهو في أوروبا ، في لقاء العلماء والتحدث اليهم ومداولة الرأى معهم في قضايا من العلم والفلسفة . وكان كدأبه طول عمره مؤلعا بالقراءة والاستزادة من المعرفة جهد الطاقة .

حدثنى الشيخ سيد طلحة ، وكان أستاذاً في جامعة بنجاب ، قال حدثنى خازن مكتبة الجامعة أنه لم ير أحداً كأقبال حرصاً على مطالعة الكتب والنظر فيها والاستزادة منها .

وكان اقبال في أوروبا ذلك الحين كثير التحدث عن الاسلام وثقافته وحضارته والقى محاضرات في الاسلام نشرتها الصحف الكبيرة . وقد دلت آراؤه وشعره من بعد ، أنه لم يُعجَب بحضارة أوروبا ، ولم يَخِلْ عليه تمويهها ولا أبرق عينه لألاؤها . ومما أنشأ قبل عودته الى الهند قوله :

يا ساكنى ديار الغرب . ليست أرض الله حانوتا . أن الذى توهمتموه ذهابا خالصا سترونه زائفا . وأن حضارتكم ستبخع نفسها بخنجرها . أن

العشء الذى ىبنى على غصن دقيق لا ىثبت ١

وكان بعد أن علم ما علم ورأى ما رأى فى الهند وأوربا ىتنازعه طرىقتان فى الحىاة ، طرىقة العمل وطرىقة الفكر • وبداله حىنا أن ىهجر الشعر وىغامر فىما ىغامر الناس فىه ولكن صدىقه السىر عبدالقادر وأستاذه آرندل جسننا له أن ىدوم على نظم الشعر •

وما كان أعظمها خسارة للأدب الاسلامى وأدب العالم كله وللانسانىة جمىعها لو هجر اقبال الشعر فلم ىخرج للناس دواىنه التسعة •

الفصل الخامس

اقبال فى وطنه

لبث اقبال فى أوربا زهاء ثلاث سنىن • ثم رجع الى وطنه سنة ١٩٠٨ م ولما مر- بدحلى استقبله أصدقاؤه وعارفوه كما ودعوه قبل ثلاث سنىن • وذهب الى مزار نظام الدين أولىا كما ذهب الىه حىن سفره الى أوربا •

ولىت شعرى أعنى اقبال بهذه الزىارة أن ىبىن أنه على العهد لم ىغىره السفر الى أوربا ، ولم ىرعه ما رأى فىها وما سمع ، ولم تفتنه فتننتها ولا سحرته حضارتها • والحق أنه نظر واعتبر ، ومملك عقله وقلبه •

بلغ اقبال لاهور فى السابع والعشرىن من حزىران سنة ١٩٠٨ واحتفل كثرى من أهل لاهور بعودته بعد غىبة ثلاث سنىن ، وتعددت المجامع

(١) دىار مغرب كى رهنى والوخدا كى بستى دو كان نهىن هى
كهرآ جسى تم سمجه رهى هو وه اب زر كم عىار هو گا
تمهارى تهذىب أبى خنجرسى آپ هى خود كشى كرىگى
جو شاخ نازك په آشىانه بنى گا ناپا ىدار هو گا

للترحيب بعود الرجل النابغ الذئى افتقده أصحابه والمعجبون به زمنا طويلا . وأنشدت فى هذه المجمع قصائد جاء فى واحدة منها بيت معناه :

« بلال حيننا الى شعرك يا من طبَّق الآفاق صيته فى الشعر »

وفى هذا دلالة على أن الناس كانوا ألفوا أن يقرءوا شعر اقبال فى الفينة بعد الفينة ، فافتقدوه فى هذه الفترة ، وعلى أن اقبالا كان له صيت فى الشعر قبل سفره الى أوربا .

فى الحمامة

نال اقبال اجازة الحمامة فى لندن ، وهو اليوم فى لاهور يمتحن الحمامة وكان لاقبال من ذكائه وعلمه وبيانه ما يؤهله لأن يبلغ فى الحمامة أعلى الدرجات ، ولكن الرجل خُلق لغيرها ، وُرشَّح لما هو أجلّ وأعلى . وانما أراد بها كسب الكفاف ليفرغ للرسالة التى حَمَلها فى هذه الحياة ، الرسالة التى تنطق بها فلسفته وسيرته وشعره وثره .

وحَدِّثت أنه كان يسأل وكيله كم عندك ؟ . فأن عرف أن عنده مايتنق منه الى آخر الشهر لم يرغب فى قبول قضايا حتى الشهر التالى وأنه كان لا يقبل وكالة فى قضية حتى يعلم أن وكيله محقّ فى القضية التى يوكله فيها . وأنه يستطيع أن يأخذ له حقه .

وقد دام على الحمامة حتى سنة ١٩٣٤ م قبل وفاته بأربع سنوات اذ اضطره المرض الى تركها .

وسئل مرة ألم يتسنه عمله الكثير يوما قضية من قضاياہ . فقال : كنت فى مكتبة المحكمة فجاءنى أحد موكلىّ يخبرنى أن قضيتہ أمام القاضى . قلت ان لقضيتك يوما آخر . ولكنه ألح علىّ أن اذهب معه الى قاعة القضاء . فقلت للقاضى أن لقضية الرجل موعدا آخر . فنظر القاضى فى الأوراق فتبين أن القضية قدّمت اليه خطأ قبل موعدها

وفي هذه القصة دلالة على أن الشاعر الفيلسوف السياسي لم يشغله
الشعر والفلسفة والسياسة عن قضاياها ومواعيده .

في التعليم

رجع اقبال الى التدريس في كلية الحكومة التي تخرج فيها ، والتي
درس بها من قبل ، فعلم الفلسفة والأدب العربي والأدب الانكليزي .
وكان راتبه منها خمسمائة روية .

ثم استقال من الكلية بعد أن عمل بها نحو سنة ونصف . واكتفى
بالمحاماة .

وحدث خادمه الوفي- ، على بخش ، قال :

سألته حين استقال من الكلية لماذا استقلت ؟ فأجاب : يا على بخش ان
خدمة الانكليز عسيرة ، وأعسر ما فيها ، أنى لا أستطيع أن أحدث الناس
بما في نفسى مادمت في خدمتهم . وأنا اليوم حر- ، ماشئت قلت وماشئت
فعلت .

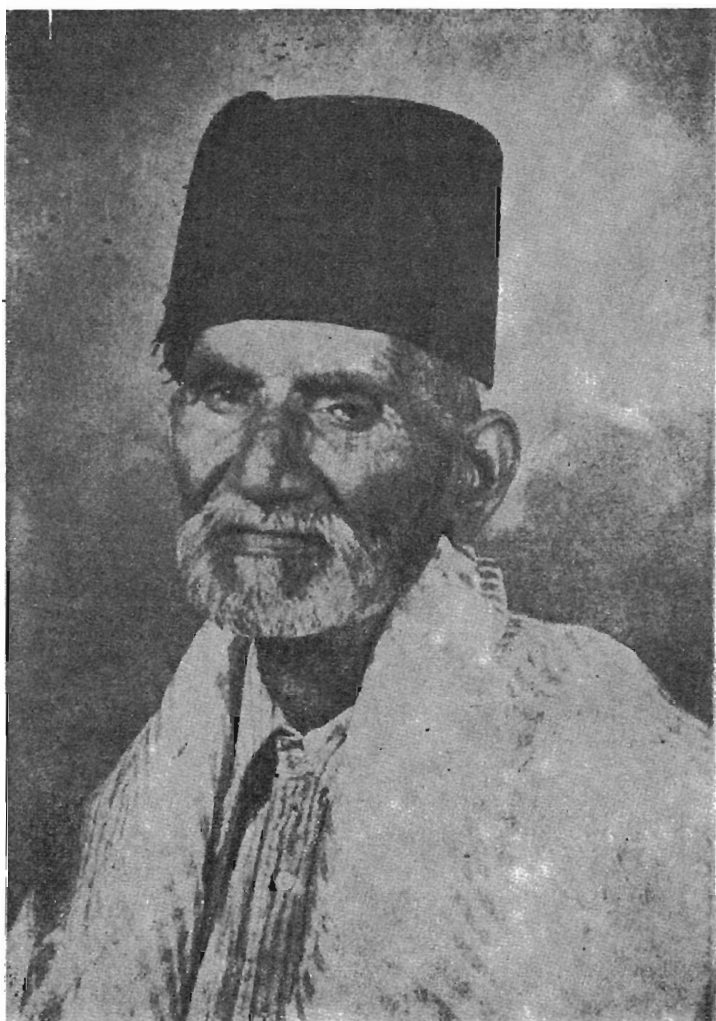
استقالة اقبال من الكلية لم تقطع صلته بالجامعة . فكان يعمل في
مجالسها ولجانها . وقد لبث سنين عميدا لكلية الدراسات الشرقية ورئيسا
لقسم الدراسات الفلسفية .

ويظهر أن النظام الانجيزى في الجامعات يجيز أن يتولى أستاذ مثل
هذه الأعمال دون أن يكون موظفا في الجامعة .

وكان ذا صلة دائمة بالكلية الاسلامية في لاهور . وكذلك كان كثير
الاهتمام بالجامعة المليية في دهلى ، دائم الاتصال بها .

وفي مؤتمر المائدة المستديرة عمل في لجان نظرت في اصلاح التعليم في
الهند .

وفي سنة ١٩٣٣ دعى هو والشيخ سليمان الندوى والسير راس مسعود



على بخش الخادم الامين الذي سهر على خدمة القبال في حياته

الى كابل للنظر في التعليم عامة ، وفي نظام جامعة كابل خاصة . وعملت
حكومة الأفغان بأكثر ما أوصى به

وأعظم ما أمد به أقبال التعليم والتربية ، فلسفته في الذاتية . وقد
طبقها على التربية والتعليم والفنون في كثير من شعره .

وقد كتب في هذا أحد المعلمين النابهن الأستاذ سيدين كتابا اسمه
فلسفة اقبال التعليمية ^١

محاضرات في أرجاء الهند

كان العلامة اقبال ^٢ دائم الاتصال بمعاهد العلم في لاهور وغيرها ،
وكانت الجامعات تدعوه الى زيارتها والمحاضرة فيها .

دعى الى مدراس سنة ١٩٢٨ فألقى محاضرات هناك ، وبدأ محاضراته
الست التي أكملها من بعد في اله آباد وعلينگره ، والتي جمعت فسميت
« إصلاح الأفكار الدينية في الاسلام ^٣ » . وهي أعظم ما كتب اقبال
في الفلسفة .

ثم ذهب الى بنگلور في أمانة ميسور أوائل سنة ١٩٢٩ م . فلقى
حفاوة بالغة ، ودعاه المهارجا الى مدينة ميسور فذهب اليها وحاضر في
جامعتها ، واحتفل الناس به كثيرا . وقال أحد أساتذة الهنادك في احدى
الحفلات :

يقول المسلمون ان الدكتور اقبالا لهم . والحق أنه لنا جميعا لا يختص
جماعة أو ديناً . فأن افتخر المسلمون بأنه أخوهم في الدين فنحن نفتخر
بأن اقبالا هندی .

وفي هذه السفرة زار اقبال قبر السلطان حيدر على وقبر ابنه السلطان

(١) Iqbal's Educational Philosophy.

(٢) يغلب على السنة الخاصة والعلمة ذكر انبال مع لقب العلامة .

(٣) Reconstruction of Religious Thoughts in Islam.

تيو ، وأصفى في خشوع الى قصيدة أنشدها شاعر على قبر «تيسولطان»
 واقبال من المعجبين بهذا الملك . وقد ذكره في كثير من شعره ، شأنه في
 الاعجاب بالأحرار الشجعان المجاهدين الذين يلقون الموت في سبيل الحق
 صابرين راضين محتسبين . والسلطان تيو - ويسمى في الهند تيو
 سلطان - جاهد الانكليز جهادا كبيرا ولم يتعده عن جهادهم الا الموت .
 وقد اجتهد في أن يستعين على الانكليز بعض الدول الاسلامية كما
 حاول أن يحالف نابليون عليهم . وكان نابليون حينئذ في مصر . وقد جمع
 له الانكليز ما استطاعوا وحاصروه . فلما يس من النصر أئف من ذل الأمر
 فألقى بنفسه من قلعة فمات سنة ١٢١٣ هـ .

ثم توجه اقبال لتقاء حيدر آباد فبلغها في الرابع عشر من كانون الثاني
 وازدحم الناس لاستقباله . واصطف الصبيان ينشدون نشيد اقبال القومي .
 ودعاه نظام حيدر آباد فنزل في ضيافته أياما

في الجامعة الاسلامية

ودعا الدكتور الأنصاري رحمه الله سنة ١٩٣٢ م حسين رءوف بك الى
 القدوم الى الهند والقاء محاضرات في الجامعة الاسلامية . وحسين رءوف
 عرّف في العالم الاسلامي منذ حرب تركيا وايطاليا سنة ١٩١١ ، أذ كان
 ربّان المدرعة حميدية فغامر بها في البحر الأبيض وأغرق كثيرا من سفن
 الطليان .

وقد شارك في أحداث تركيا حربا وسلما حتى تولى رئاسة الوزارة
 أيام حرب الاستقلال .

جاء حسين رءوف الى دهلي فألقى محاضرات في الجامعة على جمع حاشد .

وقد رأس احدى الحفلات محمد اقبال فتكلم بعد حسين رموف في اتحاد المسلمين ، وأبطل دعوة الوطنية بينهم وأبان عن مفسدها .

ثم رأس اجتماعا آخر . ورجا الناس أن يسمعوا منه مثل ما سمعوا في اليوم الأول ، ولكنه اكتفى بكلام قليل ختمه بهذه الفكاهة : ذهب الى ابليس جماعة من تلاميذه أيام الحرب العظمى (الحرب العالمية الأولى) فوجدوه خاليا ساكنا يدخن سيجارا . فسألوه كيف جلس خاليا فارغا من العمل . فأجاب : وكلت كل أعمالى الى الحكومة البريطانية هذه الأيام . وبعد أشهر عاد اقبال الى الجامعة الاسلامية في دهلى فالتقى محاضرة موضوعها السفر من لندن إلى قرطبة . وحدثنى الأستاذ أحمد پرويز أنه سمع هذه المحاضرة فرأى كيف اجتمع عقل اقبال وقلبه وعلمه وأدبه على الاعجاب بآثار العرب في الأندلس ، والاشادة بها . وحدثت في هذه المحاضرة عن لقاءه الفيلسوف برجسون في باريس وتحدثته معه في الفلسفة وفى أمور من الاسلام كان يجهلها الفيلسوف .

وفى هذا الصدد أذكر ماروى عن اقبال أنه حدثت برجسون فى الزمان — ولهذا الفيلسوف نظرية فيه توافق فلسفة اقبال من بعض الوجوه — وأن برجسون وثب من كرسيه عَجَبًا حينما ذكر أقبال الأثر المعروف : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » . وهذا الأثر مضمَّن فى شعر أقبال فى منظومته رموز بى خودى .

احتفل بأقبال فى الجامعة الاسلامية وتكلم كثير فى الأشادة بأدبه . وكان ممن تكلم هناك مولانا أسلم الجراجورى فقال :

قرأت الشعر بالعربية والفارسية والأردية . ولا حرج على أن أقول أن أقبالا أعظم شعراء المسلمين . أن كلامه ليفيض بالحقائق الاسلامية ولقد هدى ناشتتنا سواء السبيل . أن أقبالا حدق علوم الغرب ، ثم أبلغ المسلمين الرسالة التى بصرتهم بحقيقة الاسلام وعظمتها ، وملأت قلوب الشباب الغافل النائم ، بحب الرسول والقرآن .

ومنحت جامعة عليكرة وجامعة اله آباد اقبالا لقب دكتور قدرا لمكاته
في الأدب واعترافا بفضله

سفره الى افغانستان

دعا نادر شاه ملك الافغان رحمه الله ، محمد أقبال الى افغانستان . ودعاهمه
السير راس مسعود والشيخ سليمان الندوي ، دعاهم ليشيروا على
حكومته في أمور الدين والتعليم .

وبلغ أقبال وصاحبه كابل في آخر تشرين الأول سنة ١٩٣٣ فاحتفى بهم
الملك والحكومة والكبراء والأدباء . ثم أشاروا على الحكومة بما رأوا فيه
صلاح التعليم . فعملت بكثير مما أشاروا به .

وفي هذه السفرة ذهب الشاعر العظيم المولع بتاريخ الاسلام وسيبر
عظمائه الى غزنة وقندهار ، فزار قبر مكسر الأصنام يمين الدولة وأمين
الملة السلطان محمود الغزنوي ، وزار قبر الشاعر الصوفي الكبير مجد الدين
سنائي . وله قصائد بليغة في هذين المشهدين وغيرهما مما رأى في
افغانستان .

وقد خلدت هذه الرحلة بمنظومته « مسافر » ، كما سجلها الشيخ سيد
سليمان الندوي في كتاب .

في السياسة

فلسفة أقبال فلسفة أمل وعمل وجهاد وأقدام ، ودعوة عزة وكرامة
وحرية . فهي مدد للأمم المجاهدة لحررتها وكرامتها ، تبث فيها النور
والنار .

وقد وجّه دعوته الى البشر عامة ، والمسلمين خاصة ، وأخذ من التاريخ
الاسلامي أمثلة لفلسفته وصوراً لشعره .

كان شعره وما يزال ، أناشيد مسلمى الهند المجاهدين . ولا ريب أن
شعر اقبال أشمل في النفوس ثورة على سلطان الانكليز في الهند ، وأمد
المجاهدين بالأمل والمزم والاقدام .

وقد شارك اقبال ، الى هذا ، في سياسة بلاده بأقواله وأفعاله ، ورأس
مجامع سياسية . وكان عمادا قويا لحزب الرابطة الاسلامية .

وحسب رجل أن يقول فيه القائد الأعظم محمد على جناح :

كان لى صديقا ، وأماما وفيلسوبا . وكان في أحلك الساعات التى مررت
بالرابطة الاسلامية راسخا كالصخرة . لم يترزّل لحظة واحدة قط

* * *

وألح عليه أصدقاؤه سنة ١٩٢٦ أن يرشح نفسه في انتخاب الجمعية
التشريعية في بنجاب فأيده الناس وأنتخب بغير عناء . ولا تزال خطبه في
هذه الجمعية شاهدة بمهله فيها .

وقد عمل في حزب الرابطة الاسلامية ورأس الاجتماع السنوى في اله
آباد سنة ١٩٣٠ . وكانت أحوال مسلمى الهند حينئذ تعظم الشقة والتبعة
على من يتصدى لقيادتهم . وفي هذا الاجتماع ألقى خطبة مسهبة دعم فيها
أراءه بحجج من الفلسفة والاجتماع والأخلاق . ونبّه الناس الى أن
اتحاد الهند عسير في هذه الأحوال ولا سبيل الى جمع الكلمة الا باعتراف
كل جماعة في الهند بالجماعات الأخرى ، والتعاون بين الجماعات المختلفة .

قال : ان رينان الفيلسوف الفرنسى يقول : ان الانسان ليس أسيرا
للجنس والدين ولا لمجارى الأنهار وسلاسل الجبال ، ولكن كل جماعة
كبيرة من البشر ، صحيحة العقل حية القلب ، ينشأ فيها شعور يجمعها ،
تسمى أمة .

يعنى أن الأمة لا تنشأ بالأقوام والأوطان ولكن بالشعور الذى يربط
أحاديها .

ثم قال اقبال : ان الفرق الاجتماعية والجماعات الدينية في الهند لا تقبل التفاضل عن أشخاصها من أجل الوحدة الهندية ، حتى ينشأ لها هذا الشعور الذي ينشئ الأمة في رأى رينان . ان لهذا الشعور ثمننا يأبى أهل الهند أن يؤدوه .

فينبغي اذاً ألا نلتبس اتحاد الهند في محو الفوارق بين الجماعات بل نلتبس في الاعتراف باختلاف الجماعات والعمل للتعاون بينها .

ان السياسى ينبغي أن يعترف بالحقائق الماثلة ويستفيد منها جهد الطاقة . وأن وجدنا وسائل للتعاون الحق ، يحلّ السلام والصفاء في هذه الأرض العتيقة ، وتحلّ مشاكل آسيا السياسية كلها . أنا ليحزننا أن نرى أخفاقتنا في مساعينا الى الاتفاق على ما يحقق السلام بيننا .

ويتصل بهذه الخطبة خطبته في المؤتمر الاسلامى حينما تولى رئاسة اجتماعه السنوى سنة ١٩٣٢ . قال فيها :

أنا لا أقبل الوطنية كما تعرفها أوروبا . وليس أنكارى أياها خوفاً من أن تضر بمصالح المسلمين في الهند ولكن أنكرها لأنى أرى فيها بذور المادية الملحدة . وهى عندى أعظم خطر على الانسانية فى عصرنا .

لا ريب أن الوطنية لها مكانها وأثرها فى حياة الانسان الأخلاقية ولكن العبرة فى الحقيقة بأيمان الانسان وثقافته وسننه التاريخية . هذه هى فى رأى الأشياء التى تستحق أن يعيش لها الانسان ويموت من أجلها لا بقعة الأرض التى اتصلت بها روح الانسان اتفاقاً .

وفى هذا توكيد لما قال من قبل عن مقومات الأمم فى خطبته سنة ١٩٣٠ . وكتب اقبال الى محمد على جناح رئيس الرابطة الاسلامية الملقب القائد الأعظم سنة ١٩٣٧ فقال فيما قال :

« أن خير وسيلة الى السلام فى الهند فى هذه الأحوال أنه تقسم البلاد على قواعد جنسية ودينية ولغوية » .

كان أقبال أول من دعا الى أن تقسم الهند فيكون للمسلمين بها موطن
يخصّهم ، اذ رأى محالاً أن يعيش سكان الهند جماعة واحدة أو جماعتين
متفاوتين •

وكانت هذه ، في رأى الناس ، دعوة عجيبة لقيها بعضهم بالتمجّب
والسخرية وراها بعضهم حلّم رجل مجنون •

* * *

واشترك أقبال في مؤتمر الطاولة المستديرة سنة ١٩٣١ و١٩٣٢ في لندن
وكان المؤتمر ينظر في دستور جديد للهند • وكان لافواله وأعماله أثر يّتين
في أعمال المؤتمر • وقد مرّ في سفره بروما وأقام بالقاهرة أياماً •

وقد احتفلت بمقدمه جمعية الشبان المسلمين وشهدت الاحتفال •
ودعاني أستاذى الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله - وكان وكيل
الجمعية - الى أن أعرف الحاضرين بالضيف العظيم • فتكلت على قدر
معرفتى بأقبال يومئذ • وأنشدت بعض ما تذكرت من شعره وأذكر أنى
أنشدت أبياتا من ديوانه رسالة المشرق •

وألقى هو محاضرة باللغة الانكليزية تكلم فيها عن تطور الفكر الاسلامى
أو في موضوع قريب من هذا • ولا أزال أتثله قائماً يتدفق في بيانه
ويروع بعلمه وفكره • وقلت له بعد المحاضرة : ليس في وسعى أن أنشد
شعرك أحسن مما أنشدت • فقال أنشدت انشاداً صحيحاً •

وأذكر أنى كنت في درس التاريخ الاسلامى في كلية اللغة العربية من
الجامع الازهر • فدخل هو وجماعة معه وأنا أتكلّم في أنساب العرب • ثم
برح القاهرة • وكان هذا آخر عهدى به • توجه تلقاء بيت المقدس فشهد
المؤتمر الاسلامى ، وتكلّم هناك • ولو سجلت كلمة اقبال في المسجد الأقصى
لوجدنا فيها للمسلمين خيراً كثيراً •

وفي السنة التالية شهد مؤتمر الطاولة المستديرة الثالث وفي عودته مرّ-

بأسبانيا ، ورأى آثار المسلمين فيها فأوحت اليها شعرا منه قصيدته الخالدة
في جامع قرطبة . وقد استأذن حكومة أسبانيا في أن يصلى بالجامع . ولعلها
أول صلاة فيه منذ غابت شمس الاسلام عن قرطبة .

والذى يرى صورة شاعرنا الفيلسوف المسلم الفيور مصليا في جامع
قرطبة ، يقرأ قصيدة بليغة ويتخيل ما جال في فكر شاعر الاسلام في هذا
المقام الهائل ، والمشهد الرائع .

لقد نظم أقبال نفسه هذه القصيدة . ونشرت في ديوان بالجيريل . وهى
أحدى بدائعه . لا يفوق شاعر أقبالا فيما نظم في جامع قرطبة ، ولكن أرى
في صلاته قصيدة تروع نفسى معانيها ويكاد قلمى يخط ألفاظها . وعسى أن
أخطأ يوما . ماذا جال في نفس شاعر الاسلام وهو في محراب الجامع
والجامع عطل من الصلاة والأذان وهو كما قال البحترى في ايوان كسرى :

فهو يبدى تجلثدا وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرمى
بل كما قلت أنا فيه من شعر الصبى :

فهو قلب من الأمان خلى	خائر في بلاه ليس بسال
كاد يملى على عقائده الشك	زوال التسييح والاهلال
فهو لولا الايمان هدمه اليأس	فيخوى على الذرى والقال
كيف آى "أضاءها في جدار	قلم مد- من مداد الجمال
هل لها قارىء هناك عليم	بمعانى الهدى وسر- الجلال
سور تسكن الغبار كماغا	ض برمل نبع النمير الزلال
ومرايا الزمان تصدأ كالمرآة	قد طال عهدا بالصقال

ليت شعرى استطاع أقبال أن يسمع من وراء الأجيال الأذان ، تردده
مآذن جامع قرطبة ؟ أم أنصت الى القرآن يرتله الأئمة في المحراب ؟ أم
انقلبت آيات القرآن التى لا تزال تنير في جدران المسجد ترتيلا في أذنه ،
ووحيا في قلبه ؟ أى قصيدة هذه ؟ أى شاعر ينظم القصيدة التى عنوانها
« أقبال في محراب قرطبة » .

ولما أعيد تنظيم الرابطة الإسلامية سنة ١٩٣٥ اتخب اقبال رئيساً لشعبة الرابطة في بنجاب . وذلك قبل وفاته بثلاث سنين .
 ولم يَتمجز اقبالاً مرضه المزمن ، عن التفكير والعمل والكتابة ونظم الشعر . ورسائله التي كتبها في آخر حياته الى القائد الأعظم وغيره شاهدة بوقدة قلبه ، وذكاء عقله ، ومضيئه في جهاده على العِلاّت وتعمّثه في حُكْبته حتى الممات .

لقب « سير »

في سنة ١٩٢٢ قدم لاهور صحفى انكليزى ساح في الشرق وسمع صيت اقبال الأدبى في أوروبا وبلاد الشرق . فأشار على حكومة بنجاب أن تمنح الشاعر الكبير لقب سير . فدعى اقبال الى دار حاكم بنجاب الانكليزى لأول مرة . وقد حكى أحد أصدقائه^١ أنه لم يرغب في اجابة الدعوة وأنه ألح عليه وحمله في عربته الى دار الحاكم . ثم اقترحت له ألقاب أقل من رتبة سير فأبأها . ثم عرض عليه لقب سير فرغب عنه ولكن أحد كبار أصدقائه^٢ أصر على قبوله . فقبل على شرط أن يُمنح أستاذه ميرحسن ، لقب شمس العلماء . وهو الأستاذ الذى ثقفه في الأدب العربى والفارسى كما ذكرنا قبلاً . ولم يكن الأستاذ ذا صيت يسوغ منحه هذا اللقب ، ولكن اقبالاً أصر عليه فقبله الحاكم .

وقد آخذ بعض الناس اقبالاً بقبول هذا اللقب من الانكليز وأذاعوا عنه أقاويل . ونشرت بعض الصحف نظماً ونثراً فيهما هزواً بالشاعر الثائر داعية الحرية ، ولكن أصدقائه والمعجبين به احتفلوا بهذه المنحة احتفالاً كبيراً عند قبر جهاتكير في ضواحي لاهور . وشارك الهنادك والسيك ، المسلمين في هذا الاحتفال .

(١) مرزا جلال الدين

(٢) النواب السير ذو الفقار على خان .

وما كان لقبول هذا اللقب أثر ما في نفس الشاعر الفيلسوف وعمله .
وما زال طول حياته ينفث شعره في النفوس حياة وقوة وأباء وجهادا
ودعوة الى الحرية وثورة على الجيروت ، وأيقاظا للمسلمين خاصة، وتبصيرا
لهم بمكانهم في هذا العالم ومكائهم في تاريخه . وما أعرف كشمراً أقبال
دعوة الى الثورة على الاستعباد والتمرد على الطغيان ، والى لقاء الشدائد
في هذه الحياة بأكبر منها أملا وعزما وجهادا .

مرضه

شرعت العلل تعترى الشاعر الفيض ، الذي يخيل الى قارئه أنه
لا يفتر ولا يمل ولا يمرض ولا يموت .
أصابته حصاة في الكلى فعالجه الحكيم البصير الدهلوى^١ فنجح
علاجه .

وفي سنة ١٩٣٥ بح صوته ، وجهد كثير من الأطباء في شفائه ، فلم
يجد جهدهم حتى عالجه الحكيم البصير فخفت العلة قليلا .
وفي السنة نفسها توفيت زوجته فبلغ موتها من نفسه ، وأحزنه كثيرا .
وترادفت علك أصاب بعضها القلب ، واستمرت تنقص من قوته شيئا
فشيئا ، تنقص من قوة جسمه ولا تنال من عقله وروحه . فلم يقتصر عن نظم
الشعر ، ولم ينقطع عن التفكير والبيان حتى الأيام الأخيرة .
واشتدت العلة في شهر نيسان ١٩٣٨ . وبلغت مبلغ الخطر في التاسع
عشر من الشهر . وعنى الأطباء به كل عناية فما أغنى حرصهم على شفائه
شيئا .

(١) حكيم نابينا وهو طبيب في الطب الاسلامي المسمى في الهند الطب
اليوناني وكان ضريرا وله في العلاج بعيرة فاق بها المبحرين .

وكان رحمه الله يحسن - دنو - أجله ويذكره غير هائب ولا جازع . وكان يردد قبل موته ببضعة أيام أن المسلم يلقي الموت مسرورا . وقال لصديق ألماني قبل وفاته بيوم : أنى مسلم لأرهب الموت . اذا جاء الموت لقيته مبتسما .

وأرسلت اليه جَزَاة من صحيفة فى جنوبى أفريقيا فيها أن المسلمين فى اجتماع لهم فى ناتال ، دعوا له ولجناح وكمال أتاتورك بطول الحياة . فقال : أنا ختمت عملى . وجناح يؤدى رسالته . فعلى المسلمين أن يدعوا له هو بطول العمر . وفى مساء العشرين من نيسان دخل عليه ابنه جاويد وسنه حينئذ ثلاث عشرة سنة . فقال له : هلم - الى - يا بنى - ! اجلس ، فما أدري لعلنى ضيف لبضعة أيام . قال أحد الحاضرين : أنه صغير السن يتزعه مرضك . فأجاب أريد أن يلقي كل حداث لقاء الرجال . وقال لچود هرى محمد حسين - وكان من المقرّبين اليه ووَصّى على أولاده بعد موته ولقيته سنة ١٩٤٧ فى لاهور وذهبت معه الى دار اقبال وقبره . وفى دار اقبال لقيت جاويد فأهدى الى صورة والده . ولم يعش محمد حسين بعد صديقه كثيرا - قال له اقبال : كتبت فى آخر « جاويد نامه » أبياتا عنوانها « خطاب لجاويد » وقلت فيها : أن فى عصرنا هذا قحطا فى الرجال . وعسير فيه الظفر بلقاء رجال الله . فأن تكن سعيد الجدّ لقيت أحد أصحاب البصائر . والا فاعمل بهذه النصائح .

ثم قال : وحين يَشْبُ جاويد ، بعد موتى ، أفهمه هذا الشعر وفى هذه الليلة سئل عن صحته فقال : أريد الخلاص من هذه المشقة فورا .

وفاته

روى عن راجه حسن ، وكان مع اقبال ليلة وفاته - ولقيته فى لاهور مرات وفى كراچى وسمعت منه هذا - أن اقبالا رحمه الله أنشد قبل موته بنحو عشر دقائق :

سرود رفتہ باز آید کہ ناید نسیمی از حجاز آید کہ ناید
سر آمد روزگار این فقیری دگر دانای راز آید کہ ناید

وترجمتها :

«نعمات مضمين لى هل تعود ؟ أنسيم من الحجاز يمود ؟
أذنت عيشتى بوشك رحيل هل لعلم الأسرار قلب جديد؟»

ومن شعر اقبال :

نشان مرد مو من باتو گويم چو مرك آيد تبسم برب اوست
ترجمته :

« آية المؤمن أن يلقي الردى باسم الثغر سرورا ورضا »

وكذلك كان اقبال حين الموت . وضع يده على قلبه قائلا : الآن بلغ الألم هنا . وتأوه وأسلم الروح الى خالقها وهو مبتسم . وما بدا عليه أثر من سكرات الموت ، وكان الى اللحظة الأخيرة كامل الشموخ
انا لله وانا اليه راجعون

عمره

توفى اقبال وعمره بالتوقيت الهجرى :

سبعاً وستين سنة وشهراً وستة وعشرين يوماً
وبالحساب الشمسى خمساً وستين سنة وشهراً وتسعة وعشرين يوماً

الاحتفال بجنازته ودفنه

شاع فى الناس النبأ الفاجع ، والخطب الصاعق ، نعى اقبال . فكان
الأسى على قدر حب الناس ايّاه ، وأكبارهم وأعظامهم له ، وعلى قدر
ما وعت قلوبهم ، وأنشدت أفواههم من شعره ، وعلى قدر ما نفذت الى
سرائرهم ، وأنارت فى ضمائرهم أقوال الرجل العظيم الخالد ، داعية
الحياة والأقدام ومصوّر الانسانية فى أروع صورها وواصف الحياة فى

أجل وجوهها •

عطلت الدواوين والمتاجر ، وذهب الناس زرافات ووحدانا الى
« جاويد منزل » دار محمد اقبال •

رأيت أنا هذه الدار مرات • ما ذهبت الى لاهور الا زرتها • وهى دار
صغيرة ، طبقة واحدة ، يلج داخلها الى فناء صغير ، ثم يصعد درجات الى
بهو ، يتفضى الى حجرتين عن يمين وشمال • دخلت الحجره التى الى
الشمال وقيل هذه حجره اقبال • كان ينام فيها ويكتب شعره ، ويمضى
كثيرا من وقته •

قلت هذه الحجره التى وسعت الدنيا بل وسعت العالم ، بل وسعت
ماهو أعظم من العالم وأوسع ، قلب المؤمن • كم تنزل فى هذه الحجره
وحى الشعر ! وكم ازدحمت فيها أفكار الفلسفة وكم خفق فيها قلب
هو كما قلت قبلا فى رثاء محمد فريد رحمه الله :

قلب" يرید زَماعه وطِماحه زلزال هذى الأرض بالَحَمَقان

قبره

اتفق جماعة من أصدقاء اقبال وأولى الراى فى المدينة على أن يتخذوا
لشاعر الحياة قبرا فى فناء المسجد الجامع (شاهى مسجد) • وهو فناء
واسع يتفضى اليه من جهة الجنوب باب كبير فى سَور حول المسجد عال ،
تمتد معه أبنية كثيرة •

اختيرت بقعة الى يسار الداخل الى الفناء ، على مقربة من الدرَج الكبير
الصاعد الى باب المسجد الرائع ، اختيرت هذه البقعة لجثمان اقبال، اتخذت
هذه الخزانة لهذا الكنز ، بل اتخذ هذا الصوان لهذا الكتاب الخالد •

وقد رأيت ضريح اقبال سنة ١٩٤٧ م وكانت الحجره التى فيها الضريح
لم يكمل بناؤها • ثم زرته مرات من بعد حينما قدمت باكستان سفيرا •

وقد نكت الحجرة ونقش على أعلى جدرها أبيات من شعر أقبال ، يتردد
نظر العبرة والخشوع بينها وبين الضريح المائل الذى يخنو على رفات
الشاعر الخالد .

وعلى الضريح صفائح من المرمر . وقد كتب على شاهده أن محمد نادر
شاه ملك الأفغان أمر بصنع هذا الضريح اعترافا منه ومن الأمة الأفغانية
بفضل الشاعر .

ان فى هذا الضريح الثاوى فى حضانة المسجد الكبير ، الذى بناه محيي
الدين أورنگكزيب ، الذى بلغت دولة المسلمين فى عهده أوج عزتها ،
والقائم على مقربة من الآثار الرائعة التى خلقها ملوك المسلمين فى قلعة
لاهور الهائلة - ان فى هذا الضريح لوحيا لا يفتر ، وذكرى لا تنقطع ،
من حاضر المسلمين وماضيهم ، ومن معالى الاسلام وشعر أقبال . وأن
شعر أقبال ليُجلى لقارئه حضارة الاسلام وتاريخه ، فى صور رائعة
هائلة ، ويفسر هذه الآثار المحيطة به تفسيرا جميلا جليلا ، وأن من يقرأ
شعر أقبال ليستأنف فى الاسلام وتاريخه نظرا ، ويُجدد فيه تفكيرا . . .
ماذا عسى أن يقول قائل فى أقبال وضريح أقبال . حسبك أيها القلم .
برحم الله محمد أقبال .

صدى نعيه فى الهند

كانت وفاة أقبال حسرة على مسلمى الهند بما فقدوا المرشد الهادى ،
وافتقدوا الدليل الحادى ، وبما حرموا هذا ينبوع الثرار بل النهر
الهدار .

وقد رددت هذه الحسرة مقالاتهم ، ورسائلهم وأشعارهم وشارك
المسلمين غيرهم فى الأسى عليه وآكبار فقدته
وقراء العربية أكثرهم ، لا يعرفون كبراء الهند وأدباءها . فأثبت هنا
طرفا من أقوالهم . فحسبى أن أثبت مقال رجلين أحدهما زعيم سياسى مسلم ،

وثانيهما شاعر فيلسوف هندوكى ، ذانكم محمد على جناح رئيس العصبة
الاسلامية ومؤسس باكستان . والثانى طاغور الشاعر الذى ذاع ذكره فى
المشرق والمغرب .

قال محمد على جناح :

« كان شاعرا منقطع النظير ، طبَّقَ صيته الآفاق . وستبقى كلماته حيَّة
أبدا . وان مساعيه لأمته وبلده لتضعه فى صف أكبر كبراء الهند . وان
وفاته اليوم لخسارة كبيرة للهند عامة والمسلمين خاصة » .

وقال فى خطاب ألقاه فى الاحتفال بذكرى اقبال فى جامعة بنجاب سنة

١٩٤٠ م

ان حييت حتى رأيت للمسلمين دولة قائمة فى الهند فخيَّرت بين الرياسة
العليا فى هذه الدولة المسلمة ، وبين كتب اقبال لم أتردد فى اختيار الثانية .
وكتب الى ابن اقبال بعد وفاته :

« كان لى صديقا ومرشدا وفيلسوبا . وكان فى أحلك الساعات التى
مرت بالرابطة الاسلامية راسخا كالصخرة ، لم يُزلزل لحظة واحدة قط » .
وقال طاغور :

تركت وفاة اقبال فى أدبنا خلاء يشبه جرحا مهلكا ، ولن يَمَلأ الا بعد
مدة مديدة . ان مكانة الهند فى العالم ليست مكينة فموت شاعر عالمى
كهذا مصيبة لا تحتملها البلاد .

ومما قاله طاغور كذلك :

لا ريب عندى أن ما ناله شعر اقبال من قبول وصيت يرجع الى ما فيه
من نور الأدب الخالد وعظمته . ويؤسفى أن بعض النقاد وضع أدبى
وأدب اقبال فى ميزان المنافسة ، وجهدوا أن يَشيعوا أغلاطهم فى هذا
الشأن . وهذا عمل لا يليق بالأدب الفضيح الذى يخاطب النوع الانسانى
كله . لأن فى ساحة الأدب العالمى يقوم الشعراء وأولو الفن فى صف واحد
من الأخوة الانسانية .

ويقينى أنى ومحمد اقبال عاملان للصدق والجمال فى الأدب . ونحن
نلتقى حيث يقدم القلب الانسانى والعقل الى عالم الانسانية أجمل هداياها
وأروعها .

الباب الثاني

فلسفة اقبال

الفصل الأول منظومة اسرار خودى

يستطيع الناقد البصير أن يجد في شعر اقبال ، الذى أنشأه في صباه قبل سفره الى أوروبا ، لمحا من فلسفته ، وشرراً من ناره التى اشتعلت فبضاعت من بعد . وتتسع هذه اللمع ويكثر هذا الشرر على مر الزمان حتى ينشر أول دواوينه الفلسفية أسرار خودى سنة ١٩١٥ م فيتجلى مذهبه ، وتتضح طريقته في الفلسفة والشعر . ان نشر منظومة « أسرار خودى » حد بين عهدين . فالشعر الذى نشر قبله فيه نفحات من فلسفته ، ونفحات من شعره متفرقة غير جلية . ويتضمن هذا الشعر ديوان بانگك درا (صلصلة الجرس)

وأسرار خودى تمتاز بأنها منظومة واحدة على القافية المزدوجة فيها فضول يوضح فيها اقبال فلسفته في الذات فكرة بعد فكرة ، ولكن هذه الفلسفة مزوجة بالشعر عليها رونقه ومعها أخيلته وصوره . فهى فلسفة فيها شعر .

ويكتمل هذا الديوان ديوانه الثانى الذى نشره سنة ١٩١٨ : « رموز بى خودى » .

والدواوين التى أنشئت بعد ، شعر " في موضوعات شتى ، وصور لا ينالها حصر ، ولكن فلسفته تشيع فيه ظاهرة وخفية ، وصرحة ومكنية . ويسوغ أن نصف هذه الدواوين بأنها شعر فيه فلسفة .

نشرت منظومة أسرار خودى سنة ١٩١٥م فثار الناس لها بين راض وساخط ، ومستحسن ومستنكر ، بل بين مصفّق طربا يثنى معجباً ، وصائح يتعجب

ويستنكر ، ويثدبر • ويَسْفِر وقبل أن أبيضن كيف تلقى الناس فلسفة اقبال
كما بينها في كتابه « أسرار خودى » أثبت خلاصة المقدمة المنشورة التي
صدر بها اقبال كتابه :

يقول اقبال في رسالة الى الشاعر الكبير أكبر اله آبادى الملقب لسان
العصر ، كتبها في ١٨ اكتوبر ١٩١٥ • بعد نشر أسرار خودى بستة أشهر :
« الدين بغير القوة فلسفة محضة » • ١

« هذا حق لا ريب فيه • وهذا في الحقيقة ، ما دعانى الى كتابة المثنوى
(أسرار خودى) • وأنا منذ عشر سنين في هم وتفكير من أجل هذا
الموضوع • »

فقد لبث اقبال سنين يفكر في حال المسلمين ، ويسمع النظر في أسباب
ضعفهم ، ويحجّل الفكر في ماضى الأمم وحاضرها ، ويقرأ فلسفاتا حتى
اتهى الى مذهب الذى أبان عنه في منظومته هذه : (أسرار خودى)

قدم الشاعر لهذه المنظومة مقدمة منشورة مجملّة بحث فيها في نفس
الانسان ومذاهب الأمم فيها ، وفي العمل واختلاف الفلسفات فيه •

وحذف الشاعر هذه المقدمة بعد الطبعة الأولى ، ولكنها على اجمالها
تبين المذهب الفلسفى الذى ذهب اليه الشاعر حين نظم كتابه • وتجمع
للقارئ ما اتشر في هذا النظم من آراء •

وسأجل القول فيها على اجمالها :

(١) مأخوذ من بيت لا كبير :

نهو مذهب مين گر زور حكومت
تو وه كيا هي ؟ نراك فلسفه هي

يبدأ اقبال المقدمة بقوله :

« هذه الوحدة الوجدانية أو نقطة الشعور المنيرة التي تستير بها أفكار الانسان وعواطفه ورغباته ، أمر تحيطه الأسرار ، ينظّم مافي فطرة الانسان من كفيات متفرقة غير محدودة .

ما هذا الشيء الذي نسميه (أنا) أو (خودى) أو (مين) ^١ الذى يبدو فى أعماله ويخفى فى حقيقته ، والذى يخلق كل المشاهدات ولكن لطافته لا تحتتمل المشاهدة . ؟ أهو حقيقة دائمة أم أن الحياة تجلت فى هذا الخيال الخادع ، وهذا الكذب النافع ، تجليا عرضياً لتحقيق مقاصدها العملية الراهنة ؟ »

ان سيرة الأفراد والجماعات موقوفة على جواب هذا السؤال ولكن جواب هذا السؤال لا يتوقف على المقدرة الفكرية فى الأحاد والجماعات ، كما يتوقف على طباعها وفطرتها . فأهم الشرق المتفلسفة أميل الى أن تعتبر « أنا » فى الانسان من خداع الخيال . وهى تعدّ الخلاص من هذا العُلق نجاة . وميل أهل الغرب الى العمل ساقهم الى ما يلائم طباعهم فى هذا البحث . «

ويمضى اقبال فى مقدمته قائلاً :

اختلطت فى عقول الهنادك وقلوبهم ، النظريات والعملیات اختلاطاً عجيباً . ودقق حكماؤهم فى حقيقة العمل واتهوا الى هذه النتيجة : أن حياة « أنا » المسلسلة ، وهى أصل المصائب والآلام ، منشؤها العمل ، وأن حالة النفس الانسانية نتيجة محتومة لأعمالها

(١)خودى بالفارسية معناها الذات او الذاتية ، ومين بالارودية معناها « انا »

ولا ريب أن آراءهم جديرة بالاعجاب من جهة الفلسفة ، ولا سيما
جراتهم على قبول كل نتائج هذه القضية ، وقولهم انه لا سبيل الى
الخلاص من شرك « أنا » الا ترك العمل .

ولكن في هذا خطرا عظيما في حياة الواحد والجماعة . فلم يكن بد
من أن يظهر في الهند مجدد بين حقيقة المقصود من «ترك العمل» . وكان
هذا المجدد شري كرشن . فقد بين أن ليس المقصود ترك العمل حقا ،
فالعمل مقتضى الفطرة وفيه قوة الحياة ، بل المقصود ألا يربط قلب
الانسان بالعمل وتناججه . وتبع هذا المجدد آخر هو شري رام نوج
ولكن جاء على أثرهما شري شنكر أچاريه فخالفهما وحرم الناس من
ثمرات هذا التجديد .

— ٣ —

وكانت رسالة الاسلام في غربى آسيا دعوة الى العمل بليغة . فالاسلام
يرى أن « أنا » مخلوق ينال الخلود بالعمل ، ولكن تشابها عجيبا في تاريخ
الفكر الهندي والاسلامى ، يظهر في بحث هذه المسألة . فالفكرة التى
فسر بها شنكر أچاريه، كتاب الجيتا (گيتا) هى الفكرة التى فسر بها القرآن
عبي الدين ابن عربى الأندلسى . وكان له أثر بليغ في عقول المسلمين
وقلوبهم . جعل ابن عربى بعلمه ومكاته مسألة وحدة الوجود عنصرا في
الفكر الاسلامى . واقتفى أثره أوحى الدين الكرمانى^١ وفخر الدين
العراقى^٢ حتى اصطبغ بهذه الصبغة كل شعراء العجم في القرن السادس
الهجرى . ان مزاج الايرانيين الرقيق وطبعهم اللطيف ، لم يصبر على

(١) الشيخ ابو حامد اوحى الدين الكرمانى كان من تلاميذ ابن عربى وتجلى وحدة الوجود
في شعره . يوله منظومة اسمها مصباح الارواح فيها بيان طريقته .

(٢) الشيخ فخر الدين العراقى ، لقي الشيخ صدر الدين القونوى خليفة ابن عربى
واخذ منه والف كتاب اللمعات الذى كتب عليه الشيخ عبد الرحمن الجامى اشعة اللمعات
توفى سنة ٦٨٨ هـ

المشقة الفكرية التي لا بد منها في السير من الجزء الى الكل . فطووا
المرحلة الوعرة التي بين الجزء والكل بالتخيل ، ورأوا في «عرق السراج»
« دم الشمس » وفي « شرار الحجر » جلكوة الطور ١ .

— ٤ —

خاطب فلاسفة الهند العقل في اثبات وحدة الوجود . وخاطب شعراء
ايران القلب فكانوا أشد خطرا وأكثر تأثيرا ، حتى أشاعوا بدقائقهم
الشعرية هذه المسألة بين العامة فسلموا الأمة الاسلامية الرغبة في العمل .

ولعل شيخ الاسلام ابن تيمية من علماء المسلمين ، وواحد محمود من
فلاسفتهم ، أول من رفعوا الصوت باستنكار هذه النزعة ، ولكن مصنفات
واحد محمود لا تُلغى اليوم . ولا ريب أن منطق ابن تيمية القوي أثر أثره ،
ولكن جفاف المنطق لا يقوى على مقاومة نضرة الشعر وفتنته .

وقال الشيخ على حَزِين : إن التصوف جميل في الشعر . فدلّ على أنه
عرف حقيقة الأمر ، ولكن أقواله تدلّ على أنه لم يَنج من تأثير بيئته .
فكيف كان الفكر الاسلامي في الهند يستطيع المحافظة على نزوعه الى
العمل ؟

استولت على مرزا بيدل لذة السكون فلم يَسْتَحْسِن حتى طَرَفَ العين .
يقول :

« ان في بيت الزجاج لطائف محيرة . فلا تَطْرِفَ عينك فتخدش صِبْغَةَ
هذا المنظر ٢

(١) هذا تمثيل لعبارات مألوفة في شعر الصوفية .

(٢) نزاكت هاست دراغوش ميناخانه حيرت

مزه برهم مزهن تانشكني رننگك تماشارا

وبيت الزجاج « ميناخانه » هو هذا العالم التي تقوم فوقه القبة الزرقاء .

— ٥٢ —

وللشاعر تمنا بيت يقول فيه :

« انظر الى كل ما يأتى أمامك ولا تنطق . اتخذ عينا كعين مرآة وفما
كهم الصورة »^١

— ٥ —

وتمتاز أمم الغرب بين أمم العالم ببيلها الى العمل . قآراؤهم خير دليل
لأمم المشرق الى فهم أسرار الحياة .

بدأت الفلسفة الجديدة في الغرب من وحدة الوجود التي دعا اليها
الفيلسوف الهولندي الاسرائيلي^٢ ولكن مَسْحَة العمل غلبت على
طبائع الغرب . فلم يلبث طويلا طَلِسْنِم وحدة الوجود التي أُثبتت بأدلة
رياضية . سبق الألمان الى اثبات حقيقة (أنا) الانسانية المستقلة ، ثم
تحرر من هذا الطلسم الخيالي فلاسفة الغرب على مر الزمان ولا سيما
فلاسفة الانكليز .

والحق أن لأفكار الانكليز العملية فضلا على أمم الأرض كلها . فان
« احساس الواقعات » عندهم أحدٌ منه عند الأمم الأخرى . ولهذا لم
يَرْجُح في بلاد الانكليز حتى اليوم كل نظام فلسفى من نسج الفكر لا يثبت
في ضوء الواقعات .

— ٦ —

ويختم اقبال بقوله :

هذه خلاصة تاريخ المسألة التي هى موضوع هذه المنظومة . وقد

(١) ديكه جو كچه سامنى آجائى مونيه سى كچه نه يول
آنكه آينه كى بيداكى ، دهن تصويركا

(٢) يعنى اسبنوزا

— ٥٣ —

اجتهدت أن أحرر هذه المسألة الدقيقة من تعقيد الأدلة الفلسفية ، وألوتها
بألوان الخيال ليتيسر ادراك حقيقتها .

ولم أقصد بهذه الديباجة الى تفسير هذه المنظومة . ولكن أردت أن
أدل على الطريق مَنْ لم يَلْمَ من قَبْلُ بدقائق هذه المسألة العسيرة
ولا ينبغي هنا أن أتناول هذه المنظومة من حيث الشعر ، فأنا خيال
الشعر فيها وسيلة الى توجيه الناس الى هذه الحقيقة :
انّ لذة الحياة مرتبطة باستقلال « أنا » وبإثباتها واحكامها وتوسيعها .
وهذه البديقة تمهد الى فهم حقيقة « الحياة بعد الموت » .

— ٧ —

وينبغي أن يعلم القراء أن لفظ « خودى » لا يستعمل في هذه المنظومة
بمعنى الأثرة كما تُستعمل في اللغة الأردية غالبا . انما معناها الاحساس
بالنفس أو تعيين الذات . وهى بهذا المعنى في كلمة « بيخودى » كذلك . «

هذه خلاصة المقدمة المنشورة التى أثبتها محمد أقبال في الطبعة الأولى
لأسرار خودى ثم حذفها في الطبعات التالية .

وقد كتب الأستاذ نكلسون المستشرق الانكليزى ، مترجم مشوى حلال
الدين الرومى ومترجم أسرار خودى الى الانكليزية — الى اقبال يسأله
أن يكتب مقالا يوضح فيه مذهبه فكتب اليه مقالا أجمل فيه فلسفته ،
فأثبت نكلسون بعضه في مقدمة ترجمته لأسرار خودى . والمقال أحسن
مقدمة لهذه المنظومة وفلسفة اقبال كلها .

وقد رأيت أن أثبته هنا فترجمته من النص الأردى مع تغيير قليل
واختصار ، واليك المقال :

— ٥٤ —

« يقول الأستاذ بريدلى ^١ ان الشعور يقع فى مراكز معينة ويعبر عنه عبارات مختلفة ثم ينتهى الى أن يكون غير قابل للتفسير ، ولكن هذا الذى لا يقبل التفسير اذا تجاوز مراكز الشعور ينتهى الى وحدة يعبر عنها بالمطلق تتقد فيها كل مراكز الشعور المحدودة فرديتها كما تفقد القطرة فى البحر .

يرى بريدلى أن هذه المراكز المحدودة ليست الا مظهرا . وفى فلسفته أن ثبوت الحقيقة بعمومها . فالحقيقة فى نفسها محيطة . وكل محدود اضافى لا مطلق . فهو خداع نظر . كل شىء فى الكائنات محدود ، فهو اضافى فهو باطل .

فمذهب الأستاذ بريدلى أن كل مركز للشعور محدود ، أى كل ذات مفردة ، خداع نظر وباطل . وأنا أقول ، على خلاف هذا ، ان مركز الشعور المحدود الذى لا يدرك (الذات) هو حقيقة الكائنات . فالذات حق لا باطل .

الحياة كلها فردية ، وليس للحياة الكلية وجود خارجى . حيثما تجلّت الحياة تجلت فى شخص أو فرد أو شىء . والخالق كذلك فرد ولكنه أوجد لا مثل له .

وظاهر أن هذا التصور للكائنات يخالف كل المخالفة ما ذهب اليه شراح فلسفة هيگل من محدثى الانجليز ويخالف أصحاب وحدة الوجود الذى يرون أن مقصد حياة الانسان أن يفتنى نفسه فى الحياة المطلقة أو « أنا » المطلق كما تفتنى القطرة فى البحر .

أرى أن هدف الأنسان الدينى والاخلاقى أثبات ذاته لا تفتنىها ، وعلى

(١) الاستاذ بريدلى Brady كان أستاذ الفلسفة فى جامعة اكسفورد . ولد سنة ١٨٤٦ وتوفى سنة ١٩٢٤ . وله كتب كثيرة فى الفلسفة . وهو من القائلين بوحدة الوجود على مذهب هيگل الفيلسوف الالماني .

قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم «تخلقوا بأخلاق الله» فكلما شابه
الانسان هذه الذات الوحيدة كان هو كذلك فردا بغير مثل .

اننا نسأل ما الحياة ؟ وواضح أن الحياة أمر فردى . وأعلى أشكاله
(التي ظهرت حتى اليوم) « أنا » وبها يصير الفرد مركز حياة مستقلا
قائما بنفسه . فالانسان من الجانبين الجسماني والروحي ، مركز حياة قائم
بنفسه ولكنه لما يبلغ مرتبة الفرد الكامل .

وتنقص فرديته على قدر بعده من الخالق . والانسان الكامل هو الأقرب
الى الله ، ولكن ليس القصد من هذا القرب أن يتفنى وجوده في وجود
الله ، كما تقول فلسفة الاشراق ، بل هو ، على عكس هذا ، يمثل الخالق
في نفسه .

وقد بيّن جلال الدين الرومي هذه النقطة بآنا حسنا اذ قال : ان حليّة
السعدية حاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم افتقدته يوما وهو طفل .
ففرغت وتولت ، فسمعت من الغيب هذا النداء : « لا تحزنى فلن تفقديه ،
بل العالم كله يفقد فيه » !

يعنى أن الفرد الكامل والانسان الحقيقي لا يضل في الكائنات بل تضل
هى فيه أى تسخر له فيتصرف فيها .

وأنا أجاوز هذه المنزلة فأقول : يتفقد رضا الحق (الله) في رضاه

الحياة رقى مستمر ، تسخر كل الصعاب التى تعترض طريقها .
وحقيقتها أن تخلق دائما مطالب ومثلا جديدة . وقد خلقت من أجل اتساعها
وترقيها آلات كالحواس الخمس والقوة المدركة لتقهر بها العقبات
والمشقات

وأشد العقبات في سبيل الحياة المادة أو الطبيعة ، ولكن المادة ليست شرا
كما يقول حكماء الأشراف ، بل هي تعين الذات على الرقى ، فإن قوى
الذات الخفية تتجلى في مصادمة هذه العقبات .

وإذا قهرت الذات كل الصعاب التي في طريقها بلغت منزلة الاختيار .
الذات في نفسها فيها اختيار وجبر ، ولكنها إذا قاربت الذات المطلقة نالت
الحرية الكاملة . والحياة جهاد لتحصيل الاختيار ، ومقصد الذات أن تبلغ
الاختيار بجهادها .

دوام الذات او الشخصية

مركز حياة الإنسان ذات (خودى) أو شخص ، أعنى أن الحياة حينما
تتجلى في الإنسان تسمى ذاتا .

وشخصية الإنسان من الوجهة النفسانية حال من التوتر . ودوام
الشخصية موقوف على هذه الحال . فان زالت هذه الحال عقيبتها حال من
الاسترخاء مضرة بالذات . فان يكن في حالة التوتر هذه كمال الإنسان
فأول فرض عليه أن يعمل لدوام هذه الحال والحيلولة دون حال الاسترخاء .
وكل ما يمكننا من ادامة حال التوتر يمكننا من الخلود .

وهذا التصور للشخصية يقوم معيارا لقيّم الأشياء أعنى أن في ذاتنا
معيار الحسن والقبح . وبهذه تحل مسألة الخير والشر ، فما يقوى الذات
خير وما يضعفها شر . ويجب أن يقوم الدين والأخلاق والفنون بهذا
المعيار .

واعتراضى على أفلاطون ، هو في أصله اعتراض على كل النظم
الفلسفية التي تقصد الى الفناء لا البقاء ، والتي تغفل المادة ، وهى أكبر
العقبات في سبيل الحياة ، وتدعو الى الفرار منها لا الى تسخيرها
والتسلط عليها .

وكما تعرض مسألة المادة في مبحث حرية الذات ، تعرض مسألة
الزمان في مبحث خلودها .

يقول برجسون : ان الزمان ليس خطا ممتدا الى غير نهاية يتحتم علينا المرور به . فهذا التصور للزمان غير صحيح فالزمان الخالص لا يدخل فيه تصور الطول أى لا نستطيع قياسه بمقياس الليل والنهار .

ان خلود الذات أمل ، من أراد أن يظفر به فليجد- ويدأب لبلوغه . والظفر به موقوف على أن نسلك طريقا للفكر والعمل في هذه الحياة يُعيننا على حفظ حالة التوتر . ولا يستطيع ابلاغنا هذا الأمل دين بوذا والتصوف العجمي ، وما الى هذين من نظم الأخلاق الأخرى . لقد أضرت بنا هذه الطرق فأضرعتنا وأنامتنا . ان هذه المذاهب هي الليالي في أيام حياتنا .

وان قصدنا بأفكارنا وأعمالنا الى حفظ حالة التوتر في ذواتنا ، فأغلب الظن أن صدمة الموت لا تستطيع أن تؤثر فيها . تتعرض بعد الموت حال من الاسترخاء يسميها القرآن الحكيم ، البرزخ . وتدوم هذه الحال حتى الحشر . ولا تبقى بعد هذا الاسترخاء الا النفوس التي أحكمت ذواتها أيام الحياة .

ان الحياة في ترقيقها تنفر من التكرار كلّ النفور ، ومع هذا يقول الأستاذ ولدن كار¹ بناء على القواعد التي وضعها برجسون ، ان حشر الأجساد معقول أيضا .

اننا نقسم الزمان الى لمحات فنُدخل فيه مفهوم المكان ، فيصعب علينا تسخيره . وأما نستطيع أدراك معنى الزمان أدراكا صحيحا حينما ننظر في أعماق ذواتنا . أن الزمان الحقيقي هو اسم آخر للحياة . وأن الحياة تستطيع المحافظة على حالة التوتر التي حافظت عليها حتى الساعة . ولن

(١) كان استاذ الفلسفة في كنجس كوليج King's College . توفي ١٩٢١

نخلص من عبودية الزمان ما دمنا نعده أمرا مكانيا .

أما الوقت المكاني قيد توصلت به الحياة الى تسخير ما حولها .

تربية الذات

لا ريب أن الذات تستحكم بالعشق . ومفهوم العشق هنا واسع جدا . ومعناه أرادة الجذب والتسخير وأعلى أشكاله أن يخلق مقاصده ويوجد في نيلها . وخاصة العشق أفراد العاشق والمعشوق . أعني أظهار الافراد والاستقلال فيهما . وإذا جد الطالب في طلب الأوحد الأسمى ظهر فيه لتوحد ، ويتحقق ضمنا توحد المطلوب . لأنه أن لم يكن واحدا مستقلا بنفسه لم يسكن الطالب اليه . أنما يمكن عشق شخص أو وجود معين ولا يمكن لشخص عشق كائن غير مشخص .

وكما تستحكم الذات بالعشق تضعف بالسؤال . وكل ما ينال بغير جهد يعدت سؤالا . فالذي يرث مال غيره سائل . والذي يتبع أفكار غيره أو يدعيها لنفسه سائل .

والخلاصة أنه ينبغي لأجل أحكام الذات أن نخلق في أنفسنا العشق ونجتنب كل ضروب الاستجداء (أى البطالة) .

أن في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة للمسلم . فقد كانت حياته خير مثل للسعي الدائم . لقد كانت حياته كلها صورة للعمل .

أشرت في فصول من هذا المنشور الى أصول فلسفة الأخلاق الاسلامية . ويئت أن لكمال الذات ثلاث مراحل :

١ - اطاعة القانون الالاهي

٢ - وضبط النفس

٣ - والنيابة الالاهية

والنيابة الالاهية في هذه الدنيا هي أعلى درجات الرقى الانساني .

ونائب الحق (الله) خليفة الله في الأرض . وهو أكمل ذات تطمح اليها
الانسانية ، وهو معراج الحياة الروحي .

تلتئم في حياة نائب الحق عناصر النفس المتضادة ، توحدّها أعلى القوى
وأعلى الأعمال . فيتوحد فيها الذكر والفكر ، والخيال والعمل ، والعقل
والخصائص الجبليّة . فهو آخر ثمر في شجرة الأنسانية . تحبّب اليه
الصعاب والشدائد في سبيل رقى الحياة . وهو الحاكم الحق لبني الإنسان
لأن حكومته هي في الحقيقة حكومة الله ونحن نقترّب منه على قدر
ارتقائنا وبهذا القرب تعلق قيمتنا في الحياة .

وأول شرط لظهور نائب الحق أن ترقى الأنسانية في جانبيها الروحي
والجسمي . فان ارتقاء الأنسانية يقتضى ظهور أمة مثالية تتجلى في أفرادها
في الجملة هذا التوحد الذاتى ، وتصلح لأن يظهر فيها نائب الحق .

فمعنى سلطان الله في الأرض أن تقوم فيها جماعة شوربة يتوحد أفرادها،
ويقوم على هذه الجماعة واحد يمكن أن يسمّى نائب الحق أو الانسان
الكامل ، وهذا الإنسان الكامل يبلغ ذروة الكمال التى لا تتصور فوقها
ذروة .

وقد رأى نطشه (الفيلسوف الالماني المعروف) ضرورة ظهور هذه
الأمة المثالية ولكن دهريته واعجابه بالسلطان مسخا فلسفته كلها . «

كيف تلقى الناس منظومة اسرار خودى

قال بعض الناس لأقبال أحسنت وأبدعت ، عرفت الداء ووصفت
الدواء . وقال آخرون :

حدت عن الطريق . ولم يصحبك التوفيق . وأنكرت التصوف .
وازدريت أئمة الصوفية .

وكرت المقالات في القبول والرد ، والمدح والقدح . وأقصد هنا الى

تبيين ما كان لأسرار خودى من أثر في نفوس الناس، لماذا قبلها واستحسنها وأعجب بها وأشاد بناظمها من قبل واستحسن وأعجب وأشاد . ولماذا نفر منها من نفر واستكرها من استكر . ولعل في بيان هذا وذاك بيانا للجديد في هذه المنظومة ، والبدع فيما حوته من آراء :

تلقى بعض الصوفية دعوة اقبال في أسرار خودى بالاستنكار والرد ، اذ وجدوها دعوة الى « خودى » وهى كلمة تدل في لغتها الفارسية على الأثرة والعجب والأنوية وما يتصل بها . وتستعمل كذلك في الأردية فهى دعوة في الاخلاق منكرة ، وفي التصوف أشد نكرا . وقد نقل اقبال « خودى » الى معنى آخر جعله أصل فلسفة له . فأراد بها الذاتية ، وقال في فلسفته ان العالم قائم بهذه الذاتية وان الانسان بهذه الذاتية يقوّم ، على قدر قوتها وضعفها ، بل يخلد أو يفنى بانسحابها أو اضمحلالها ، وان مقصد الانسان في هذه الحياة معرفة ذاته وتقويتها وتنمية مواهبها واستنباط مافى فطرتها . وليس من الخير في شىء انكار الذات أو اضعافها ، بل هو الشر كل الشر . ولا ينبغى العمل لفنائها ولا الرضا به كما يفعل الهنادك وضوفية العجم - كما يقول اقبال - بل لا تفنى الذاتية في الله تعالى وليس من الخير السعى الى افنائها فيه :

أحكم نفسك في حضرته ، ولا تفن في بحر نوره ١ .

ورأى الصوفية في هذا أمرا نكرا ، اذ كان التصوف في زعمهم يقصد الى اذلال النفس وتذليلها وأماتها حتى تؤهل للفناء في الله . بل أدعى بعض المجادلين أن اقبالا ينكر التصوف ، ويدعو الى محوه .

وزاد الصوفية ثورة على اقبال أنه عمد الى امام من أئمتهم ، وشاعر من أعاظم شعرائهم ، « لسان الغيب حافظ الشيرازى » فحط من شأنه ، وغض من طريقته ، ونهى الناس عنه وحذرهم منه . كتب في مقدمة

مشونا بيد أندر بحر نورش

(١) انجود محكم گذار أندر حضورش

المنظومة أبياتا في حافظ خلاصتها : ١

« احذر حافظا أسير الضهباء ، فإن في كأسه سمّ الفناء . ليس في سوقه
الا المدامة ، وقد شَعَثْ كأسان على رأسه العمامة . ذلكم فقيه ملة المُدمنين ،
وامام أمة المساكين . شاةٌ علّمت الفناء ، والدلال والفتنة العمياء .
هو أركى من شاة اليونان ، ونفمة عوده حجاب الأذهان . فِرْ من كأسه
فإن فيها لأهل الفِطْن ، خَدْرًا كحشيش أصحاب الحسن ٢ » .

وحذف اقبال هذه الأبيات بعد الطبعة الأولى ووضع مكانها فصلا
عنوانه « اصلاح الآداب الاسلامية » بيّن فيه المعنى الذي قصد اليه حين
حذر من طريقة حافظ وشعره ولم يذكر حافظا . فبلغ ما أراد ، وكفى نفسه
عداء المعجّين بحافظ المتعصبين له .

نبد من رسائل اقبال الى المعترضين

وأقل نبذا من رسائل اقبال الى المعترضين ، ورده على ما أخذهم
وشبهاتهم . لعل القارئ يجد في هذه النبذ ايضا آراء اقبال في التصوف ،
وتمييزه بين نوعين منه : التصوف الاسلامي والتصوف العجمي ، والتفريق
كذلك بين التوحيد ووحدة الوجود ، ولعله يجد فيه تفسيراً لما غمض على
الناظرين من فلسفته ، وأجمل هذا تمهيدا للكلام في فلسفة اقبال عامة ،
وآرائه في « أسرار خودي » خاصة .

(١) هوشيار از حافظ صبا گسار
نیست غیر از باده در بازار او
آن فقیه ملت میخوارگان
گوسفند است و نوا آموخت است
از بز یونان زمین زیرک تراست
بگذر از جامش که در مینای خویش
چون مریدان حسن دارد حشیش

جامش از زهر أجس سرمایہ دار
از دو جام آشفته شد دستار او
آن امام ملت بیچارگان
فتنه و ناز و ادا آموخت است
پرده عودش حجاب اکبر است
چون مریدان حسن دارد حشیش

(٢) - یضرب اقبال الشاء مثلا للضعف ، فلذلك سمی حافظا شاة . وشاة
اليونان افلاطون . والحسن الصباح امام الفرقة التي عرفت باسم الحشاشين

قال في رسالة الى السيد حسن نظامي مكتوبة في الثلاثين من كانون
الأول سنة ١٩١٥ .

« انى بفطرتى وتربيتى أنزع الى التصوف . وقد زادتنى فلسفة أوربا
نزوعا اليه . فان فلسفة أوربا فى جُمَلتها تتوجه الى وحدة الوجود ،
ولكن تدبّر القرآن المجيد ، ومطالعة تاريخ الاسلام بامعان أشعرانى
بغلطى . ومن أجل القرآن عدلت عن أفكارى الأولى وجاهلت ميلى
الفطرى ، وحدثت عن طريقة آبائى .

ان الرهبانية ظهرت فى كل أمة ، وعملت لأبطال الشريعة والقانون .
والاسلام فى حقيقته هو دعوة الى استنكار هذه الرهبانية . والتصوف الذى
ظهر بين المسلمين — أعنى التصوف الايرانى — أخذ من رهبانية كل أمة ،
وجهد أن يجذب اليه كل نحلة ، حتى القرمطية التى قصدت الى التحلل
من الأحكام الشرعية لم تعدم نصيرا من الصوفية .

ان اعتراضك ، حتى اليوم ، لم يعدّ مقدّمة أسرار خودى . فلم يتناول
المنظومة نفسها . وكيف أعمل قلمى ، ولست أدرى ما اعتراضك عليها؟
كيف أعمل قلمى فى هذا الصدد . انما اعترضت على ما حسبتّه غضًا
من قدر حافظ الشيرازى . ولن يستبين الحق فى هذا الأمر حتى يوفى
البحث حقه

ان حالة السكر (فى اصطلاح الصوفية) تنافر الاسلام وقوانين الحياة ،
وحالة الصحو ، وهى الاسلام ، موافقة "قوانين الحياة" . وانما قصد
الرسول صلى الله عليه وسلم الى انشاء أمة صاحبة (فى حالة الصحو) .
ولهذا تجد فى صحابة رسول الله الصديق الأكبر والفاروق الأعظم ولا
تجد حافظا الشيرازى .

هذا بحث طويل تضيق عنه هذه الرسالة القصيرة . وسأفصل هذا

ان شاء الله حين تتاح الفرصة • ولكن ذكر ابن عربي يذكرني بمسألة أبينها هنا حتى لا يبقى في فكري لَبَس •

لا أنكر عظمة الشيخ وفضله ، بل أعده من كبار فلاسفة المسلمين • ولا أرتاب في اسلامه ، فانه يحتج على عقائده ، كقِدَم الأرواح ووحدة الوجود ، بالقرآن على حسن نية • فأراه على صوابها أو غلطها قائمة على تأويل القرآن • وأما أن تأويله غلط أو صواب عقلا ونقلا فمسألة أخرى • وعندى أن تأويله غير صحيح • فأنا أعده مسلما مخلصا ولا أتبعه في مذاهبه •

وأصل المسألة أن الصوفية أخطأوا خطأ كبيرا في فهم التوحيد ووحدة الوجود • ليس هذان الاصطلاحان مترادفين كما توهموا • فالأول مفهوم ديني • والثاني فلسفي محض • ليس التوحيد ضد الكثرة كما يظن بعض الصوفية بل هو ضد الشُّرك • وأما وحدة الوجود فهي ضد الكثرة • وكانت نتيجة هذا الغلط أن عدَّ من الموحدِّين طائفة "ذهبوا الى وحدة الوجود - أو التوحيد في اصطلاح فلسفة أوروبا الحاضرة - على حين أن المسألة التي ذهبوا اليها لا تتعلق بالدين بل بحقيقة نظام العالم •

ان تعليم الاسلام واضح بيِّن • هو أن ذاتا واحدة تستحق العبادة ، وأن كل الكثرة التي ترى في العالم مخلوقة •••

ليست عقيدة وحدة الوجود من تعليم القرآن • فإنّ القرآن يبيِّن المغايرة التامة بين الخالق والمخلوق أو العابد والمعبود • «

— ٢ —

ويقول في رسالة أخرى الى سراج الدين بال مؤرخة ١٠ تموز سنة ١٩١٦:

« الحق أن التماس معان باطنية في قانون أمة هو مسخ لهذا القانون كما يُعلم من سيرة القرامطة • ولا يختار هذه الطريقة إلا أمة في فطرتها الخنوع والمذلة • وفي شعراء المعجم جماعة في طباعهم الميل الى الاباحة • وهذا الميل في ايران

— ٦٤ —

من قبل الاسلام . وقد صدّه الاسلامُ حينما هذا الميل الطَّبَعِي . ثم عاد فظهر حينما وجد فرصة . فوَضِع للمسلمين أساس أدب يقوم على وحدة الوجود . وقد افتنّ هؤلاء الشعراء في ابطال شعائر الاسلام بأساليب عجيبة خداعة .. وأبانوا عن وجه مذموم في كل أمر ممدوح في الاسلام . وأضرب الجهاد مثلاً . فقد التمس شعراء المعجم معنى آخر في هذه الشعيرة التي يراها الاسلام من ضرورات الحياة . انظر في هذه الرباعية :

« يسلك الغازي كل سبيل من أجل الشهادة ، ولا يدري أن شهيد العشق أفضل منه . كيف يستوى هذا وذاك يوم القيامة . هذا قتيل العدو وذاك قتيل الحبيب »^١

وهذا جميل في الشعر ولكنه خدعة لأبطال الجهاد .

وإذا نظرت الى حافظ وكل شعراء ايران من هذه الوجهة ، بانت لك عجائب وغرائب » .

وفي رسالة أخرى الى سراج الدين نفسه يقول اقبال :

كل شعر التصوف ظهر في زمان ضعف المسلمين السياسي . وكل أمة يصبها ضعف كالذي أصاب المسلمين بعد غارات التتار ، تتبدل أنظارها^٢ ويحمل الضعف في أعينها ، وتركن الى ترك الدنيا . وفي هذا الترك تخفي الأمم ضعفها وهزيمتها في تنازع البقاء . انظر الى مسلمي الهند . فقد انتهى الأدب عندهم الى فن الرثاء في لكهنؤ .

(١) غازي زبي شهادت اندر تنگ وپوست

غافل كه شهيد عشق فاضل ترازوست

در روز قيامت اين باآن كي ماند

اين كشتهء دشمن است واين كشتهء دوست

(٢) يقول اقبال في ضرب الكلم . ان الامة ضعفت عن شريعة القرآن فحاولت ان تبدل القرآن ليلانها ، ولم تحاول ان تغير نفسها لتلائم القرآن تبدلت فاجهد ان تبدل شرعة فليس يطبق الطبي شرعة ضيف

هذا طرف مئاً أجاب به اقبال اعتراض المعترضين • ومن هؤلاء من قنعوا بقراءة مقدمة المنظومة أو الأبيات التي تضمنتها في نقد حافظ • ولم يقرأوا المنظومة كلها فيتدبروا دعوة اقبال ، أو قرءوها ولم يرتقوا الى الجدال فيها

وآخرون من زعماء المسلمين في الهند تلقوا دعوة اقبال بالأكبار والأعجاب وقدروا حاجة المسلمين اليها ، وأثرها في أنفسهم • فأشادوا بفلسفة اقبال وأثنوا عليه بما يستحق •
ومن هؤلاء الزعيم مولانا محمد على • قال بعد أن نشر اقبال أسرار خودى ورموزى خودى : ان شعر اقبال يحدو المسلمين في هذا العصر الى النشأة الثانية •

شرعت أنا وأخى شوكت على في قراءة أسرار خودى فرأينا ضربا من الشعر يفوق ما قال من قبل • وحق أنه بدلنا ، أول الأمر ، فترابجانب شعره الأردى الذى يرمى بالشر ، ولكننا حينما فرغنا من الباب الأول الذى عرف فيه موضوع فلسفته عرفنا أنه شعر يبعث الحياة فى الجماد ••• .
لقد رأيت أنه فى هذا الابداع جلا حقائق اسلامية لم أدركها الا بعد مشقة وعناء •••

ان الحياة فى نظر اقبال صحراء جرداء • وادراك المرء «ذاته» هو ادراك مقاصد الحياة ••• لقد بيّن اقبال رسالة الاسلام وسنته الأخلاقية ، وأنحى على نظرية القومية والوطنية عند الغربيين التى تحد تعاون الناس ، وترمى الأمم فى الفرقة والاختلاف •

وكتب مولانا أسلم جيراجورى سنة ١٩١٩ :
مازال بعض الناس يعترضون على اقبال منذ نشر كتابه أسرار خودى ، اذ جعل أفلاطون اليونانى وحافظ الشيرازى فى فصيلة الفنم •
وليس حافظ الشيرازى عندهم شاعرا عظيما فحسب بل هو ولى مقدس ولو لم يكتب اقبال عن حافظ ما كتب لكان خيرا له • لأنه عرض نفسه لظمن الطاعنين ، ولأن المسألة الأصلية التى تنفع الأمة حجت فى غبار هذا

الجدال • كما فعل بيرزاده مظفر أحمد اذ نظم « راز بيخودی » ليرده على اقبال ما قال عن أفلاطون وحافظ ، وأغفل الموضوع الأصلي •

الفصل الثاني

خلاصة اسرار خودی

أجل في هذا الفصل خلاصة آراء اقبال كما بيتها في هذه المنظومة وأكتفى بزهرات من هذه الرياض ، وقطرات من هذه الحياض •
أعرض على القارئ ما يعرف بفلسفة اقبال وشعره معا ، شعره الذي يصور به الفلسفة ، ويعرض مباحثها في معرض لم تألفه ، ولم يمهده الناس • ولا يروض الفلسفة للشعر ، ويطوع الشعر للفلسفة الا اقبال وأمثاله • « وقليل ما هم »

— ١ —

المقدمة

كان اقبال يشعر بأنه أتى العالم بمذهب جديد ، ورأى يدع ، ان لم يكن اخترعه اختراعا ، فقد اخترع طرائقه وصوره وجمع أجزاءه وألف أشناته ، وأدرك صلة هذا المذهب بالانسان حياته ومماته ، وآحاده وجماعته ، وبيّن صلته بالاسلام خاصة ، فأتى بالعجب ، واستولى على الأمد •

ومن أجل هذا يعرب عن ثقته بنفسه ، وتأثير كلامه ، ويذكر طلوعه على العالم شمساً جديدة ، لا تعرف رسومه ، ولا تألفها سماؤه وأرضه ، ويتحدث عن نفاذ بصره الى مكنون الحياة ، وامتداد عينه الى أسرار المستقبل :

يقول في مطلع المنظومة :

قطع الصبح على الليل السفر	فهمي دمعى على خدّ الزهر
غسل الدمع سبات النرجس	وصحا العشب بمسرى نفسى
جرب الفارس قولى موقدا	مصرعا ألقى وسيفا حصدا

انسج الروض وأتاتى معا
 كم صباح فى فؤادى مرصد
 من جنين الدهر عندى خبر
 لم تسيب بعد من قيد العدم
 وجنيت الورد فى جوف الشجر
 فى وتار الكون كفى تعزف
 ما وعى عنى جليسى نعمتى
 حبكا فى فلك لم أعهد
 لم ير جراح زبقتى فى البصر
 ما كسا الأطواد ثوبى الأحمر
 أنا من خوف طلوعى أردد
 فبدا طلّ جديد فى الزهر
 حبذا من حول نارى زمزما

انه حب دموعى زرعا
 ذرة ، قد حازت الشمس يدى
 طينتى من جام جم أنور^١
 صيد أفكارى طباء لم ترم
 زان بستانى عشب ما ظهر
 محفل الشادين منى يرجف
 صامت فى رباب الفطرة
 اننى شمس قريب المولد
 لم يرع ضوءى سرب الزهر
 ما رأت رقص ضيائى الأبحر
 ما لهذا الكون عينى تعهد
 مزق الظلمة فجرى فظهر
 اننى أرفب صباحا معلما

* * *

أنا صوت " شاعرى يأتى غدا
 ما بهذا السوق يشرى يوسفى^٢
 مشعل طورى ليغشاه كليم
 قطرتى كاليم فيها صرصر
 ولركب غير هذا لى حذاء
 يوقظ الأعين حينا وينام
 ونما من قبره مثل الزهر
 كخفاف النوق رهوا سابلة
 ثورة المجشر منى فى الصباح

أنا لحن دون ضرب صعدا
 كل سر دون عصرى يخفى
 أنا فى يأس من الصبح القديم
 بحر صحبى قطرة لا تزخر
 من وجود غير هذا لى غناء
 كم تجلى شاعر بعد الحمام
 وجهه من ظلمة الموت سفر
 كم بهذا السهب مرت قافلة
 غير أنى عاشق ، دبنى التواح

(١) كأس جنيد فى اساطير الفرس كانت ترى فيها الاقاليم السبعة .

(٢) اشارة الى قصة يوسف الصديق .

أنا لحن كلّ عنى الوتر لا أبالي أن عودى يكسر
أبعد القطرة عن سيل طمى وليجنّ البحر منه خضرم
لا تمى موجى هذى الأنهر لا يعى موجى إلا أبحر

* * *

ليصدقنى القارئى لقد أردت أن أثبت هنا آياتا قليلة تنطق
باعتداد اقبال بنفسه وشعوره برسالاته ، فلم أدر ماذا آخذ وماذا أدع
فكتبت هذه الآيات كلها .

ولست فى حاجة الى أن أفسر للقارىء هذه الآيات لأدله على
شعور اقبال بأنه أدرك أسرار الحياة ، وبصر بما فى ضمير الغيب ، وأنه
رسالة الغد الآمل الى اليوم اليأس ، والمستقبل العزيز الى الحاضر الذليل

جلال الدين الرومى

يقول اقبال فى مقدمة هذه المنظومة ان جلال الدين الرومى هو الذى
أيقظه ونبّه ودعاه الى أن يسلك هذه السبيل ويقصد هذا القصد ويشيع
فى الناس بيانه ويلفهم رسالته . وهو يعترف لجلال الدين بالأمامة فى مواضع
كثيرة من كتبه . ولما نظم منظومته الخالدة جاويد نامه وقصّ فيها سفره
فى الأفلاك السبعة ، جعل جلال الدين دليله فى هذا سفر .

يقول فى مقدمة أسرار خودى :

صير الرومى طينى جوهرى من غبارى شاد كونا آخرا
ذرة تصعد من صحرائها لتتال الشمس فى عليائها
اننى فى لجه موج " سرى لأصيب الدر فيه نيرا

ويقول بعد أن بات شاكيا نائحا فأخذ النصب والنوم فلاح له
جلال الدين :

قال يامجنون بين العاشقين
 شتق في العين حجاب البصر
 واجعلن الضحك ينبوع البكاء
 أنت كالكم صموت أبكم
 صعذن من كل عضو كالجرس
 أنت نار فأضئ للعالمين
 من حُمَيَا العشق فاجرع كل حين
 وأثر في القلب هول المحشر
 واملأ القلب دموعا من دماء
 انثرن كالورد ، ريحا يفعم
 نوحك الصامت - في كل نفس
 بلهيب منك أذكِ الآخرين

الى أن يقول :

جرسَ الركب ! تنبّه لا تنم
 واعرف اللذة في نظم النغم

وبهذا البيت ينتهي كلام جلال الدين كما حكاه اقبال . ويقول الشاعر
 بعده مبينا أثر هذا الكلام في نفسه :

صرت نارا في ثيابي تسر صرت كالنار هياجا أضمر
 ثرت من أوتار نفسي نغما صفت من حسن بياني أرما
 فرفعت الستر عن سرّ خودى
 مظهر الاعجاز من أمر خودى

رأى القارئ من مقدمة أسرار خودى المثورة ومن جدال اقبال
 ومخالفه أنه خالف الصوفية في وحدة الوجود وانكار الذات ، وسمى
 التصوف المتضمن هاتين العقيدتين تصوفا غير اسلامي . ويراها هنا يعترف
 بأمامة الرومي ، ويقر له بالفضل بما أوحى اليه هذه الطريقة . وقد كرر
 هذا في مواضع من دواوينه الأخرى .

ولا يتسع المجال هنا لبيان ما بين جلال الدين واقبال من التشابه ،

وأسباب اعجاب أقبال بجلال الدين واكباره اياه . ولعلى أيتن هذا بعد الفراغ من بيان فلسفة أقبال .

اقبال والاسلام

ويقول فى المقدمة بعد حديث جلال الدين الرومى :

كان كونى هيكلا لم يكمل كان عَطَلا سَقَطَا لم يقبل
مِبرد العشق برانى رجلا كيفَ هذا الكون والكمّ جلا
فرايت النبض فى جسم ذكاء وبعرق البدر تسيارَ الدماء ١
فاض للانسان دعى فى الظلم فشقت السرّ عن عيش الأمم
فبدا لى سر تقويم الحياة وشببت النفس فى نار الحياة
فى هذه الأبيات يذكر أنه بكى على الانسان وأطال التفكير فى أمره
حتى اهتدى الى سر الحياة . وفلسفة أقبال فى عمومها انسانية ، ومذهب
الذاتية لا يخص واحدا ولا جماعة ولا أمة .

ويقول أقبال بعد هذه الأبيات :

أنا مَنْ فى ظلمة الليل أنار فى طريق الملة البيضا غبار
أمة دوت بأفاق الورى لحنها فى القلب نارا قد سرى

ذرة أَلقتْ وشمسا حَصَدتْ

ألف رومى وعطار جنت ٢

• وهنا يذكر الأمة الاسلامية ويقول انه غبار أقدائها . وحب أقبال
الاسلام ، واعجابه بتاريخ المسلمين ، ورؤيته فى العرب الأولين المثلّ
الأعلى فى نضج « الذاتية » تلقى قارىء شعره جيشا قلب صفحات
دواوينه . وهذه الأمة خصّها أقبال بتطبيق فلسفته . فهى فلسفة انسانية
تجد موضوعها ومثلها وغايتها فى أمة الاسلام .
وسأعود الى هذا بعد ان شاء الله .

(١) رأى دورة الدم فى عروق القمر .

(٢) جلال الدين الرومى وفريد الدين العطار .

فصول اسرار خودى

هذه أمهات الفصول فى ديوان أسرار خودى وتكاد هذه العناوين كلها تكتب بلفظها العربى فى تركيب فارسى :

١ — أصل نظام العالم من الذاتية ، واستمرار أعيان الوجود موقوف على استحكام الذاتية •

٢ — حياة الذاتية بتخليق المقاصد وتوليدها

٣ — تستحكم الذاتية بالمحبة والعشق

٤ — ضعف الذاتية بالسؤال

٥ — اذا استحكمت الذاتية بالمحبة والعشق سخَّرت قوى العالم الظاهرة والباطنة •

٦ — حكاية فى معنى أن مسألة نفى الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة لتضعف أخلاق الأمم الغالبة من طريق خفية •

٧ — فى معنى أن أفلاطون اليونانى — الذى أثر كثيرا فى أفكار الأمم الاسلامية وآدابها — ذهب مذهب « الغنم » ، والاحتراز من خيالاته واجب •

٨ — حقيقة اصلاح الشعر والآداب الاسلامية •

٩ — تربية الذات لها ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى الاطاعة ، والثانية ضبط النفس ، والثالثة النيابة الالهية . ويتفنن أقبال فى البيان فى هذا الفصل التاسع فىقص قصصا حقيقية أو خيالية لتصوير مذهبه منها :

(أ) - حكاية شاب ذهب الى الشيخ على المهجورى شاكيا جور أعدائه (وقد بيّن له الشيخ أن العدو له عليه فضل بما ينبت قواه ، ويقوى ذاته)

(ب) - حكاية الطائر الذى أنهكه العطش (وجد ماسة فلم يستطع التقاطها ثم وجد قطرة ماء فالتقطها ، الماسة مثل الذات القوية ، وقطرة الماء مثل الذات الضعيفة)

(ج) - حكاية الشيخ والبرهن ، ومحاورة نهر الجنجبا وجبل هيمالا فى معنى أن تسلسل حياة الأمة من الاستمساك بسننها •

١٠ - فى بيان أن مقصد حياة المسلم اعلاء كلمة الله وأن الجهاد ان كان سببه « جوع الأرض » فهو حرام فى الاسلام •

١١ - نصيحة ميرنجات النقشبندى المسمى الأب الصحراوى التى كتبها لمسلمى الهند •

١٢ - الوقت سيف •

١٣ - دعاء (يختم به المنظومة)

نظرة عاجلة فى هذه الفصول

- ١ -

الذاتية

يبدأ المنظومة بالكلام عن الذاتية ، أنها أصل الكون • يقول :
هيكل الكون من آثارها ، وكل ما ترى من أسرارها ، انها حينما أيقظت
نفسها أظهرت عالم الفكر • مائة عالم خفية فى ذاتها • وغيرها مثبتت بأبوابها •
بذرت فى العالم بذر الخصومة ، اذ حسبت نفسها غيرها - يعنى أنها
حقيقة واحدة اتخذت ذوات مختلفة ، فتباينت وتنافست - الى أن يقول :
تدمى مائة روضة لأجل وردة ، وتثير ألف نوحة لأجل نعمة ، وتمنح

فلما واحدا مائة هلال ، وتكتب من أجل كلمة واحدة مائة مقال • وعلة
هذا الاسراف وهذه القسوة ، خلق الجمال المعنوي وتكميله - يعنى إن
التكامل يقتضى فناء أشكال ، وعدم صور ، وامتحاء أطوار • فمائة
روضة تنشأ لتكامل فيها وردة • وهلم جرا •

وتصوير صعوبة التطور وعسر التكامل ، سبق اليه بعض شعراء
الصوفية مثل سنائى الغزنوى •

ثم يقول أقبال : وتراها من أجل عملها ، عاملا ومعمولا ، ووسيلة وغاية •
تنبعث وتثور وتطير وتضئ وتختفى وتحترق وتموت وتنبت^١
وظاهر أن الشاعر يريد قوة الحياة التى تتجلى فى مظاهر مختلفة ،
وتداولها أحوال شتى ، ولكنها الحياة المتعينة المتشخصة فى الذوات
الكثيرة •

ثم يقول :

حياة العالم من قوة الذات ، فالحياة على قدر ما فيها من هذه القوة
فالقطرة حين تقوى ذاتها تصير دائرة • والجبل اذا غفل عن ذاته انقلب
سهلا وطغى عليه البحر • ويضرب الشاعر فى هذا المعنى أمثالا شعرية عدة •

انما أقصد هنا الى تبين فلسفة أقبال ، وقد جعلت الكلام فى منظومة
أسرار خودى وسيلة الى هذا التبيين • فلا حرج أن أترك هذه المنظومة
حينما الى غيرها من دواوين أقبال • قد بث الشاعر فكرة الذاتية فى شعره

(١) نظم اقبال كل هذه الافعال فى بيت واحد •

كله . ذكرها أحيانا مجملة ظاهرة وخفية وصريحة ومكنية ، وأفاض أحيانا في الإبانة عنها وموالاة وصفها والتمثيل لها . ومن مواضع الإفاضة منظومته « ساقى نامه » من ديوانه الذى سماه بال جبريل (جناح جبريل) واليكم نبذة من كلامه عن الذاتية فى ساقى نامه :

تكلم عن الحياة الثائرة ، والزمان السائر ، وعن الأمم والآحاد ، فى هذا الجهاد ثم قال :

« ما هذا النفس الحى - ؟ سيف . ما مسنٌ هذا السيف ؟ الذاتية . ما الذاتية ؟ سر - الحياة الباطن . ما الذاتية ؟ يقظة الكائنات . أنها ثملة بالجلوة ، ومغرمة بالخلوة ، أنها بحر فى قطرة . . . أنها ظاهرة فىك وفى ، وهى بريئة منى ومنك (يعنى ليست مقيدة بكون محدود) . ماضيها الأزل ، وآتيها الأبد . ليس لها ماض ولا آت يحد . . . »

تغيّر وسائل التحرى ، وتبدل منظرها بين حين وحين . والصخرة الثقيلة خفيفة فى يدها ، والجبال رمال من ضربها . والسفر مبدؤها ومنتهاها ، وهو السر من تقويمها . هى ضياء فى القمر ، وهى شرار فى الحجر . . . وهى فى هذا الكفاح منذ الأزل ، وقد صورت كذلك فى صورة الانسان .

ان مستقر- الذاتية قلبك ، كما يحوى الفلك انسانُ العين . وسمّ هذه الذاتية العيش الذليل ، والعزة مأوئها السلسيل . «

أردت أن أعرض على القارىء صوراً للذاتية فى شعر أقبال ليتأمل فيها . وما أردت أن أحجبه عن الشاعر بكلامى وبيانى .

— ٢ —

المقاصد والآمال

ويقول فى الفصل الثانى :

ان هذه الذاتية تحيا بخلق المقاصد والجد فى المسير اليها ، وعلى قدر

عظم مقاصدها تعظم ، وعلى قدر المشقة التي تحملها تقوى •

والأمل في شعر اقبال كله ، هو الحياة ، والجهاد الدائب هو حافظ هذه الحياة • وان قارئ اقبال ليروعه اعظام اقبال الأمل ، وتصويره اياه واشادته بالعمل الدائب والجهد المستمر ، بل يرى اقبال أن الجهاد في سبيل المقصد أعظم لذة من بلوغه :

طوبى لمن لا يزال في أثر المحمل • أى لذة في الاضطراب دون وصول ١

ويقول في هذا الفصل من « أسرار خودى » :

انما يَبقى الحياةَ المقصد	جرس" في ركبها ما تَقصد ٢
أصلها في أمل مُستتر	سرها في السعى منها يُضمَر
أحى في قلبك هذا الأمل	أو يَحُلّ طينك ترابا مهملا
فحياة القلب من نار الرجاء	ماسوى الحق لدى القلب هباء
فاذا عىّ بتخليق المنى	هيض سِقنطا وعن الطير ونى
ويُميت الحىّ فقدانُ الرجاء	يُطفىء الشعلة فقدانُ الغداء

بل يرى أن العقل نشأ من الأمل :

رأس مال في الحياة الأمل	وكذاك العقل منه يُنسل
كل فكر وخيال واعتبار	كل حسّ وشعور وادّكار
هى آلات الحياة الجاهدة	حين تمضى في وغاها صامدة

(١) خوشا كسى كه بدنبال محمل است هنوز طيبدين و نرسيدن جه لدنى دارد

(٢) يعنى ان المقصد كجرس القافلة يؤذنها بالمسير كل حين •

المحبة والعشق

العشق ، عشق الأمل وعشق المثل الأعلى ، يشعل الذاتية ويظهر مافيه
من قوى • ومثل المسلم العاشق هو الرسول صلوات الله عليه •

وإذا استحكمت العشق لم يحل بين الإنسان وأمله عقبة ولا مشقة ، ولم
تأخذه فيه رغبة ولا رهبة وسخر الإنسان قوى العالم •

زائد بالحب في الذات رؤاء

وحياة واشتعال وبقاء

مشمعل بالحب منها الجوهر يتجلى من قواها المضر

لا يهاب العشق في السيف المضاء

ليس من ماء وترب وهواء

هو في العالم حرب وسلام وهو ماء حياة وحمام

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل القول في العشق ، عند الصوفية وعند
اقبال ، وفي الموازنة بين العشق والعقل وبين الفكر والذكر •

وقد صور اقبال هذا صورا كثيرة ، ولم يمتل من ذكره وتكراره •
ويجده القارىء في هذه المنظومة « أسرار خودى » وغيرها • فليرجع الى
ترجمة هذه المنظومة ، وليرجع الى ديوانيه رسالة المشرق وضرب الكليم
ومقدمتيهما^١

(١) يرجى نشر ترجمة أسرار خودى ورموزى خودى بعد هذا الكتاب .
وقد نشر من قبل رسالة المشرق وضرب الكليم •

ولا تخلو فصول الكتاب الآتية من حديث في هذا الشأن .

— ٤ —

الذات تصنف بالسؤال

الثقة بالنفس ، والاعتداد بها ، والاعتناد عليها ، والاستغناء بها ، بقوى الذات . والشك فيها ، والاتجاه بها الى الناس ، وحملها عليهم ، يضعفها .

يبدأ اقبال هذا الفصل بقوله يخاطب المسلم :

أيها الجابي من الليث الخراج . صرت كالثعلب خبثًا باحتياج
ذلك الأعواز أصل العلل كل أدوائك من ذا المعضل
من كنوز الدهر أخرج ما تريد وخذ الصهباء من دن-الوجود^١

ويضرب مثلا عمر رضى الله عنه اذ سقطت دريته من يده وهو راكب ، فنزل ليأخذها ، وأنف أن يسأل أحد الرجالة أن يناوله درته .

ثم يقول : « لا تبغ رزقك من نعمة غيرك ، ولا تستجد ماء ولو من عين الشمس . واستعن الله وجاهد الأيام ، ولا تترق ماء وجه الملة البيضاء

طوبى لمن يحتمل الضر من الحرور والظما ، ولا يسأل الخضر كأسا من ماء الحياة . »

— ٦ —

تقى الذات من اختراع الأمم المغلوبة

يتحدث اقبال في هذا الفصل عن الاقوام المغلوبة كيف خدعت الاقوام الغالبة عن نفسها وزينت لها « تقى الذات »

(١) معنى اطلب رزقك في ارض الله لا تستجد احدا ولا تعمل على غيرك .

ويضرب مثلا قطيعا من الغنم تسلطت عليه الأسود ، تصول عليها
وتنال منها ماشاءت كلما شاءت •

ففكر كبش في أمر جماعته فبدا له أن يضعف في الأسود نزعة التغلث ،
والصولة ، ويصرفها عن الاعتداد بالقوة • فادعى أنه نبي^١ مرسل الى
الأسود • ودعاها الى الزهد والاستكانة وانكار الذات • ونهاها عن أكل
اللحم وعلتها أن الجنة للضعفاء ، وأن القوة خسران مبین • وقال :
« يا ذابح الشاة اذبح نفسك ، واغفل عنها ان تكن عاقلا »

أطبق عينيك وأذنيك وشفتيك ليصعد فكرك فوق الفلك ١ • ان هذه
الدنيا مرعى العدم ، فأياك أن تركز الى هذا الوهم •

ويصور الشاعر أثر هذه الدعوة في الأسود بهذه الأبيات :
كانت الأسد جهادا مكلت وتمنت منه عيش الدعة
عن هوئى أصغت الى النصيح المننيم
ودهاها الكبش بالسحر العظيم

جَوهر الآساد أضحي خزفا	حين أضحي قوتهن- العلبما
ذهب العشب بناب عسر	أطقأ الأعين ذات الشرر
هجر الصدر فؤاد متقدم	فاذا المرآة فيه تظلم
وذوى في القلب شوق العمل	وجنون السعى ملء الأمل
ذهب الأقدام والعزم الأمر	والسنا والعز والمجد الأغر
بثرثن الفولاذ فيها قد وهن	واستكان القلب في قبر البدن
ونما الخوف بنقص المنبة	قطّع الخوف جذور النخوة
كل داء في سقوط الهمة	انه العجز وضعف الفطرة
نامت الأسود بسحر الغنم	سمت العجز ارتقاء الفهم

(١) اشارة الى حكمة شرية بمنلها قرود يضع احدها يديه على عينيه والثاني يضمهما على
اذنيه والثالث على فمه

مذهب الفلاطون واثره في الآداب الاسلامية

ينكر أقبال ، في كثير من أقواله ، على أفلاطون مذهب في عالم المادة وعالم المثال ويبيّن سوء أثره في الحياة ، ويقول انه يدعو الناس أن يهجروا عالم الحس الى عالم الخيال ، وأن يفروا من هذه الحياة . ويرى أقبال أن عالم المادة كائن لا ريب فيه ، وأن على الإنسان أن يقهره ويسخره ، ويجوزه الى مقاصده ، وأن في العمل لتسخير هذا العالم قوة النفس الانسانية وارتقاءها .

يبدأ أقبال هذا الفصل من أسرار خودى بقوله :

راهبُ الماضي أفلاط الحكيم	«مذهب الشاء» تولّى في القديم ^١
طرفه في ظلمة المعقول ضل	في حزون الكون قد أعيا وكل ^٢
فكره في «غير محسوس» فتّين	صد - عن كف وعين وأذن ^٢
قال : في الموت بدا سر الحياة	وخمودُ الشمع يعلو من سناه
ويقول في هذا الفصل أيضا :	

عالم الأمكان للحى وطن _____ عالم «الأعيان» للميت سكن

مُشفق راهبنا لا يُقْبِدم

قلبه يعيشون نار خامده

ولا يتسع المجال هنا للقول في مذهب أفلاطون وتطوره الى مذهب

أفلوطين من بعد ، وأثر هذا في المسيحية وفي بعض مذاهب الصوفية .

وحسبنا أن نقول ان اقبالا يدعو الى ادراك الذات وتقويتها ، والى العمل الدائب ، والجهاد الذى لا يفتّر . ويرى أن الحياة في العمل والجهاد ، والموت في الاستكانة والسكون . ويرى أن عالم المادة كائن لا خيال ،

(١) يعنى مذهب الضان الذى بينه في الفصل الماضى في قصة الاسود والغنم .

(٢) يعنى افعل ما يلمس ويرى ويسمع .

وأن عمل الانسان تسخير هذا العالم ، وفي الجهاد لتسخيره قوته وكماله .

وهذا مذهب يخالف مذهب أفلاطون والمذاهب التي تفرعت منه في
جملتها وتفصيلها ، ومذاهب فلاسفة الهند . ويخلف التصوف غير الاسلامي
أو للتصوف العجمي كما يقول أقبال .

— ٨ —

حقيقة الشعر واصلاح الآداب الاسلامية

بيئت أنفا أن أقبالا كتب أبياتا عن حافظ الشيرازي يذم مذهبه ،
ويحذر الناس منه ، وأنه حذف هذه الأبيات بعد الطبعة الأولى ، وأثبت
مكانها أبياتا في اصلاح الآداب الاسلامية .

استهل الشاعر هذا الفصل ببيان الأمل وأثره في الحياة ، صور هذا
تصويرا بليغا جميلا كدأبه حين يتحدث عن الأمل في شعره .

ثم قال أننا نأمل ما هو حسن وجميل ، بل الحسن يخلق الأمل :

كل خير وحسين وجميل	هو في صحرائنا خير دليل
يَطبع القلب على أشكاله	خالقا في القلب من آماله
يخلق الحسن ربيع الأمل	وجهه يبدى بديع الأمل

ثم يقول ان الشاعر يدرك الجمال ويجلوه للناس ، ويزيد الجميل جمالا ،
ويزيد القطرة بهجة ، ويدعو الأمة الى الجميل ويحدوها اليه

فأن لم يكن في الشاعر هذا الإدراك ، ولم تشع في شعره الدعوة الى
الخير والجمال والتغنى به وحفز الهمم اليه ، ساء أثره في أمته ، وحداها
الى الهلاك

يثلبس النفعَ ثيابَ الضرير
 شدوؤه فينا يزيد الكللا
 سئلَ برقَ ماحوى نيسانه
 حسنه بالصدق لا يعترف
 نومت ألحائه يقظتنا
 ثلبل للقلب سمّ نغمّه
 ويثرى الموت جميل المنظر
 كأسه فينا تزيد الملا
 آلَ لون وشذوى بستانه^١
 بحره ما فيه الا الصدف
 أطفأت أنفاسه وقدتنا
 ضفّت ورد فيه يثوى أرقمه

ويمضى فى بيان أثر هذا الشاعر فى أمته ، الى أن يقول :

خسّة فى ذلّة فى شقوة

يأس مستسلم للخبيّة

نوحه رّوحك منه فى سقام قد حمى أصحابه طيبَ المنام
 ويل عشق قد ذكا فى الحرّم ناره باخت بيت الصنم
 ولا شك أنه يعنى بهذا شعراء اللهو والمجون ، وشعراء اليأس
 والتشاؤم ، وشعراء العزلة والخلوة ، وشعراء الفناء والسكر من الصوفية .
 وهى الأبيات التى كتبها مكان أبيات ذكر فيها حافظا الشيرازى كما قدمت .
 وينتهى فى هذا الفصل الى دعوته دعوة الحياة والقوة والأمل والعمل ،
 والهمة والاقدام ، يقول :

صير فى القول! ان تبغ النجاة
 نير الفكر بقود العملا
 بثّ فكرا سالحا فى الأدب
 وسليى العرب ياصح اعشق
 فى ربيع الهند سرحت البصر
 يمّم البيد ، اشربن من حرّها
 أسلّمن رأسك يوما صدرها
 كم وطئت الورد فى طول المدى
 فاجعلن معياره شرع الحياة
 مثل رعد بعد برق جلجلا
 ارجعن ياصح نحو العرب
 أطلعن صبح الحجاز المشرق
 وبروض العجم جمعت الزهر
 وعتيق الراح خذ من تمرها
 وألقن فى حرّها صرصرها
 غاسلا كالورد خدا بالندى

(١) بستانه سراب من اللون والريح - الال السراب . ونيسان (ابريل) من شهور الربيع .

فعلى رمل الصحارى المضرمَ أقدم النفس ، وغص في زمزم
 فالأمّ العثس بين الظلل وألام النوح مثل البلبل ؟
 ابن عشا حيث لا تبني الأنوق تختفى فيه رعود وبروق
 لترى أهلا لعصار الحياة
 وتذيب النفس في نار الحياة

— ٩ —

مراحل تربية الذات

لتربية الذات مراحل ثلاث : الطاعة ، وضبط النفس، والنيابة الالهية ،
 فأما الطاعة فيضرب الشاعر فيها الجمل مثلا ، يسير بأقاله صابرا في غير
 ضوضاء . ويقول ان الطاعة تجعل في الجبر اختيارا ، وأن الانسان الحز
 بسخر هذا العالم ولكن يقيد نفسه بالشريمة .

بامثال الأمر يعلو من سفلى وهوى الطاغى وان كان الجبل
 سخر الأفلاك في همته وثوى في القيد من شرعته
 قد سرى النجم يوم المنزلا طوع قانون له قد ذكلا

وأما ضبط النفس فيقول فيه اقبال مشبها النفس بالجمل أيضا :

جمل " نفسك تربو بالعلف في أباء وعناد وصلف
 فكن الحر وقدها بزمام من حضيض تبلغن أعلى مقام

ويقول : ان الذى لا يحكم في نفسه حرى أن يحكم عليه غيره .

ويرى أن ضبط النفس لا يكون الا بنفى الخوف والشهوات .

وان التوحيد المطلق ينفى عن النفس الاستكانة للمخاوف والمطامع .

من يمسك بمصامير «لا اله» طمس الخوف تحطته يده
كل من بالحق أحيأ نفسه ليس للباطل يحنى رأسه

وأما المرحلة الثالثة من مراحل تربية الذات ، وهى النيابة الالهية ، فهى مرحلة يكون الانسان فيها مسيطرا على العالم ، مسخرا قوى الكون ، نافذا الحياة فى كل شىء ، مجدداً شباب كل هرم . يهب الحياة بأعجاز العمل ، ويجدد مقاييس الأعمال ، ويرد العالم الى الأخاء والسلام . هذا الانسان الذى يذكر القارىء بالانسان الأعلى فى تعليم نطشه الفيلسوف الألمانى وبالانسان الكامل الذى تحدث عنه بعض الصوفية كعبد الكريم الجيلى ، ذكره اقبال فى مواضع كثيرة من شعره بوصف الرجل المؤمن « مرد مؤمن » وهو فى العالم أمل وعمل ، واصلاح وعمران ، وسلام ووثام ، لا تمجزه عقبة ولا تبعد عليه شقة .

وان الفطرة لتكد- فكرها ، حتى تنظم مثل هذا الانسان فى الحين بعد الحين .

يقول اقبال فى هذا الفصل :

فطرة" غلياء" تبغى مظهرا	تبتغى فى الكون خلقتنا آخرا
تنجلي من فكره مثل الزهر	غير هذا الكون أكوان" آخر
تنضج الفطرة بالضرم	يخرج الأصنام من بيت الحرم
رن- عود القلب من مضربه	يقط" بالحق نومان" به
باعث" فى الشيب ألحان الشباب	ناشر فى الكون ألوان الشباب
هو فى الناس بشير ونذير	هو جندي" وراع وأمير

مُحضّر من تحته طرف الزمان حينما يمسك منه بالعنان

فسر الدنيا بتفسير جديد عبر الرؤيا بتعبير جديد

الى أن يقول مخاطبا هذا الانسان المرجو :
ايه يا فارس طرفِ الزمن ايه يانورا بعين الممكن

ثم فسكتن من ضجيج الأمم
جددن في الناس قانون الأخاء
أرجعن في الأرض أيام الوثام
لبنى الانسان أنت الأمل
أذبلت كفه الخريف الشجرا
فاغدت في الروض ريبعا نضرا
وأملأ الآذان حلو النغم
وأدرنها كأس حب وشفاء
أبلغ الناس رسالات السلام
أنت من ركب الحياة المنزل
فاغدت في الروض ريبعا نضرا

ويمضى الشاعر فيقص قصة الرجل الذى شكى الى الشيخ على الهجويرى^١
احاطة الأعداء به ، وخوفه بأسهم ، فأجابه الشيخ مبينا فضل العدو عليه
بما يثير قواه الكامنة . ونصحه بنفى الخوف من نفسه، واحكام همته وعزمه:

يوقظ الخصم قواك الهامدة
قوة العزم تذيب الحجرا
تشحذ العزم عقاب السبل^٢
ماغتاء العيش مثل النعم ؟
مثل ما تحيى الموات الراجعة
ما يبالى السيل صخرا ان جرى
امتحان العزم قطع المنزل
ما حياة دون عزم متحكيم

وكذلك يقص اقبال قصة الطائر الظمان الذى حاول التقاط ماسة فلم
يستطع ، ووجد قطرة ماء فالتقطها ، يضرب الماسة مثلا للذات الناضجة
المحكمة ، والقطرة مثلا للذات النيئة الضعيفة .
ثم يقص قصة الماس والفحم مثلا للذات القوية والذات الضعيفة كذلك .

(١) احد كبار الصوفية له كتاب بالفارسية اسمه كشف المحجوب . ومزاره في لاهور مقصد
الزائر من ارجاء الهند .

(٢) العقب جمع عقبه .

وينتقل الى قصة أخرى فيها شكوى ناسك هندي الى شيخ مسلم أنه فكر في أقطار الأرض والسماء ولم يهتد الى ما يطمئن اليه ، وتصح الشيخ اياه بأن ينزل الى الأرض مفكرا في نفسه وعيشه ويدع آفاق السماء . ويبيّن له الشيخ ان في التمسك بالسنن ، ولو كانت سنن الكفار ، قوة للأمة واجتماعا .

ثم يضرب مثلا محاوراة بين جبل همالة ونهر جَنجَا ، ويقول على لسان النهر للجبل : ماجدوى الوقار والرفعة وأنت محروم من السير . انما الحياة سير متصل ووجود الموج في تحركه :

صاغك الله نجية للسماء	وحمى رجلك سيرا في الفضاء
قيدت رجلك عن سير فما	هيئة فيك ورأس " قد سما ؟
انما العيش مسير ووصلا	وحياة الموج أن ينتقلا

فأجابه الجبل :

ان هذا السير فيه الحين لك	من يزمل عن نفسه يوما هلكك
انما العيش نمو في المكان	وبروض «الذات» قطف الأقحوان
أنت تقنى في خضم خضم	وقلالي مسجد للأنجم
وبعيني ضياء سر الفلك	وبسمعى طيران الملك
صخر قلبي، ونارى في الصخر	ليس للماء الى نارى ممر-

— ١٠ —

مقصد حياة المسلم اعلاء كلمة الله . والجهاد للاستيلاء على الارض حرام لا تظهر الصلة بين هذا الفصل والفصول السابقة لطول الاستطراد وكثرة الأمثال . فليذكر القارىء ان هذا الاستطراد وذاك التمثيل عقب الكلام في النيابة الآلهية . وقد وصف الشاعر نائب الحق بأنه خليفة الله في الأرض ، الى أوصاف أخرى كثيرة . فلما بلغ الغاية من البيان والتصوير

— ٨٦ —

رجع بين أن هذا السلطان الذى يناله المسلم الحق ينبغى أن يكون لاعلاء
الحق لا لفتح البلاد وقهر العباد .

يقول اقبال أول هذا الفصل :

انما المسلم بالحب قهر
غض- للحق ، وللحق نظر
مسلم لا حب- فيه قد كفر
وله فى الحق نوم وسهر

فى رُبى التوحيد أرسى العمدا
وعلى الناس جميعا شهدا

وعليه يشهد الداعى الأمين
شاهد" أصدق كل الشاهدين

الى أن يقول ان الحرب ان أردت بها صلاح الناس فهى خير . وان
رمت بها مالا أوجاها فهى شر .

خير" الحرب اذا رمت الإلاه
فاذا لم يعلر حقا سيفنا
شر" الحرب اذا رمت سواه
اكسى بالحرب عارا جئندا

ثم يقص قصة الشيخ ميانمير أحد كبار الصوفية ، اذ زاره أحد سلاطين
الهند . وكان السلطان مولعا بالحرب والفتح . وبينما السلطان يلتبس
من الشيخ أن يدعو له بالنصر ، تقدم أحد المريدين الى الشيخ بدرهم
قائلا : كسبت هذا بكدى ، وألتبس من الشيخ أن يقبله منى . فقال
الشيخ للمريد : أعط هذا الدرهم سلطاننا . فهو أفقر الفقراء . وأحرص
الناس على الاستجداء . كم أخرج بلادا وقتل عبادا ليصبح . قد بطش
جوعه بالخلق ، وأهلك الحرث والنسل .

نصيحة ميرنجات النقشبندى لمسلمى الهند

لا يميز القارىء فى هذا الفصل كلام ميرنجات من كلام اقبال • ولعلها كلمة موجزة أثرت عن الشيخ فبنى عليها اقبال هذا الفصل الرائع فكرا وشعرا •

يقول اقبال فى هذا الفصل :

أن سرّ الحياة أن يغوص الانسان فى نفسه ثم يبرز منها كما تنفوس القطرة فى البحر فتصير لؤلؤة ، وأن يجمع الشرار تحت الرماد فيصير شعلة تبهر الأبصار ، وأن الحياة أن تجعل نفسك حرّما لنفسك ، وتبرأ من الطواف حول غيرك •

هذه المعانى كررها اقبال كثيرا فى شعره • هو يرى أن تقوى الذات ، ويرى أن قوتها بأن تعرف نفسها ، وتجمع قواها • وقد ضرب مثلا باختفاء القطرة فى البحر ، والشرار تحت الرماد ، قبل أن تصير القطره لؤلؤة ، والشرار شعلة •

ثم يقول :

طير • وحرر نفسك من جذب التراب ، واحفظها من الهوى الى الأرض ثم ينقل عن جلال الدين الرومى قوله :

ان العلم اذا اتصل بالجسم فهو عدو ، واذا اتصل بالروح فهو صديق •

ويستطرد الى القصة المعروفة فى سيرة جلال الدين ، قصته هو وشمس الدين التبريزى ، اذ جادله شمس الدين فى جدوى الفلسفة والعلوم التى كان يتعلمها جلال الدين • واشتد الجدل بينهما كل يفند صاحبه •

فهاج شمس الدين وألقى نظرات على كتب جلال فاذا هي تحترق •

وتبع جلال^١ الدين شمس الدين فاقلب صوفيا اماما ، وكتب كتابه الخالد « المثنوى » وديوانه الرائع الذى نُسبه الى صاحبه فسمّاه ديوان شمس تبريز •

ثم يمضى اقبال بعد القصة قائلا :

انما يكمل علم المسلم بحرقة القلب ، وان معنى الاسلام ترك ما يأفك •
ان ابراهيم حينما ترك الآفلين ، لم تحرقه النار^١ •

اطلب ماء الحياة من بريق الخنجر ، ومن فم التنين ماء الكوثر ، ولا تبغ حرقه العشق فى علم العصر ، لا تطلب لذة الحق من كأس هذا الكافر •

ان هذا العلم هو الحجاب الأكبر ، يصنع الأصنام ويبيعها ويمبدها • وهو فى قيد الظواهر ، لم يستطع الخلاص من حدود الحس • وقد عثر فى طريق الحياة ، ووضع خنجره على حلقه • ان فيه نارا ولكنها باردة كالشقائق^٢ •

الى أن يقول فى اهمال المسلم نفسه ، وتقليده غيره :

ان محفل المسلم احترق بسراج غيره ، ومسجده اشتعل من شرار الدبر •
قد أجفل من سواد الكعبة كالظبي ، فمزقت جنبه أسهم الصياد • ان كعبتنا عامرة بأصنامنا ، وان الكفر ليضحك من اسلامنا • وان شيخنا

(١) اشارة الى قصة ابراهيم حين نظر الى كوكب والقمر والشمس فوجدها كلها نائل • فقال

« لا أحب الاثنيين » وآمن بالله الواحد •

(٢) بمعنى شقائق النعمان ، فيها حمرة النار لا حرها •

قامر بالاسلام فى عشق الأصنام ، واتخذ خيط مسبحة من الزنكار • هو
فى سفر دائم مع مرديه ، وفى غفلة عن حاجات أمته • الوعاظ والصوفية
عبدوا المناصب ، وأضاعوا حرمة الملة البيضاء • واعظنا الى بيت الصنم
ناظر ، ومفتينا بالفتوى يتاجر •

— ١٢ —

الوقت سيف

ويستمر الشاعر فى بيانه وقصصه وتمثيله ، حتى يعقد هذا العنوان
« الوقت سيف » • فيثنى على الإمام الشافعى الذى أثرت عنه هذه
الكلمة • ويبين الشاعر مذهبه فى الوقت وقد أجمله فى كتابه الى الأستاذ
نكلسون الذى قدمنا ترجمته ^١ • ويقول فى هذا الفصل : ان الانسان توهم
الوقت خطأ ممدودا ، وقاسه بالليل والنهار • فوقع فى شباك الوقت •
والحق أن الوقت هو الحياة ، هو الأمل والعمل والسير والدأب •

كان هذا السيف فى كف- الكليم	فشأى التدييرَ بالفعل القويم
شق صدر البحر لمع القبس	صيرَ القلزمَ مثل اليبس
وبهذا السيف يومَ الخطرِ	زكزلت خير كفاء الحيدر ^٢
ممكن ابصار دور الفضلك	وتوالى صحبه والحلك
يا أسير اليوم والأمس انظرا	انظرن فى القلب كونا آخرا
أنت فى النفس بذرت الباطلا	وحسبت الوقت خطا طائلا
وذرعت الوقت طولا ، للشقاء ،	بذراع من صباح ومساء
واتخذت الخط زنارا فما	كنت فى الباطل الا صنما
اقطع الزنار حرا لا تهن	شعة فى محفل الأحرار كن

(١) انظر من ٥٨

(٢) الحيدر على بن ابي طالب ، والاشارة الى مآثره فى فتح خيبر •

ايه يا غافل عن سرّ الزمان
 كم تثرى في أسر صبح ومساء
 من مسير الوقت كلّ يظهر
 ما من الشمس زمانى يوجد
 وبه الشمس أضاءت والقمر
 قد بسطت الوقت بسطا كالمكان
 وقتنا من قلبنا يزدهر
 هو من صبح منير أنور
 الحياة الدهر يا من عرفا
 كيف تدرى ما خلود الحيوان^١
 «لى مع الله» بها الوقت أضاء^٢
 والحياة السرّ منه يبهّر
 تلك تقنى وزمانى يخلد
 وبه فى العيش ماساء وسرّ
 وفرقت اليوم من أمس الزمان
 ليس فيه أول أو آخر
 هو فى الحى حياة يثمر
 «لاتسبوا الدهر قول المصطفى^٣»

ثم يمضى الشاعر فى بيانه فيقول : ان الفرق بين الحر والعبد أن الحر
 يحتوى على الزمن ، والعبد يحتوى عليه الزمن . فالحر يتصرف لا يحد
 عمله يوم وغد ، ولا نهار وليل ، ولا يعتل بحكم الزمان . وللعبد تعلات
 من حدود الزمان وأحكام الوقت . وحسبى من أبيات كثيرة هذه الأبيات :

نسج العبد عليه كفنا
 وترى الحرّ على التّرب علا
 فطرة العبد حصول الحاصل
 فى مقام من هنود راكد
 ومن الحرّ جديد الخلقه
 قيّد العيد صباح ومساء
 وأرى الحرّ مشيرا للقدر
 من صباح ومساء ، مدعنا
 ناسجا هيمته فوق الملاء
 ليس فى أفكاره من طائل
 نوحه ليلا وصبا واحدا
 كلّ حين وجديد النعمة
 وثوى فى فمه لفظ القضاء
 صورت كفاء أحداث الدهر

(١) الحيوان الحياة . وفى القرآن الكريم : « وان الدار الآخرة لى الحيوان لو كانوا يعملون »
 (٢) إشارة الى حديث برويه الصوفية : « لى مع الله وقت لا يسمنى فيه نبى مرسل ولا
 ملك مقرب » .

(٣) إشارة الى الاثر المروى : لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر .

(٤) الملا واحد الملونين . وهما الليل والنهار .

سرّ غيب وحضور ، فى الفؤاد رمز وقت ومرور ، فى الفؤاد

— ١٣ —

دعاء

ويختم اقبال هذه المنظومة بدعاء يسأل الله فيه أن يهب المسلمين العشق وحرقة السعى . ويشكو من نار تشتعل بين جنبيه ويضرع الى الله أن يهبه نجياً يتلقى عنه دعوته ، ويدرك أسرارها ، أو يسلبه هذه النار التى تضطرم فى صدره .

الفصل الثالث

المنظومة الثانية

رموز نفى اللات (رموز بى خودى)

بنى اقبال فلسفته على الذات . ودعا الى اثباتها وتربيتها وتقويتها ، كما يرى القارىء فى الخلاصة التى قدّمتها من منظومة «أسرار الذات» ، عنى الشاعر فى هذه المنظومة (أسرار خودى) بالاعتراف بالفرد ، والايما بقاء الكامنة ، وبما تفعل هذه القوى فى هذا العالم اذا أثرت .

ثم أكمل اقبال فلسفته بالتأليف بين الفرد القوى ، أو الذات الكاملة ، وبين الجماعة التى يعيش فيها .

يرى اقبال أن الذاتية أو الفردية أساس العالم ، وأن الخير كل الخير فى تقوية ذات الانسان ، واستخراج ما فى فطرتها من قدرة . وكذلك يرى اقبال أن هذه الذات لا تربى وتكتم الا فى الجماعة ، وأن عمل الجماعة أن تمكّن الفرد من بلوغ كماله باظهار كوامن فطرته ومنتهى قدرته .

فالمنظومة الأولى تتناول الذات وتربيتها ، ولا تخلو من كلام عن صلة

الفرد بجماعته • فأن عسيرا أن يفصل الباحث أو الشاعر بين الموضوعين
فضلا تاما •

والمنظومة الثانية تعالج الموضوع الثانى : الجماعة ، نظامها وكمالها ،
وتنشئة الفرد فيها • ولا يخلو كلامه فى هذا من كلام فى الذات كذلك •

والى القارىء خلاصة هذه المنظومة « رموز بى خودى » :

يبدأ المنظومة بتمهيد فى ارتباط الفرد والأمة • ثم يعقد الفصول الآتية:

١ - الأمة تنشأ من اختلاط الأفراد ، وكمال تربيتها بالنبوة

٢ - أركان الأمة الاسلامية :

١ - الركن الأول التوحيد •

ويستطرد فى بيان التوحيد الى فصول أخرى :

أن اليأس والخوف والحزن أممات الخبائث ، وقاطعات

الحياة وأن التوحيد يزيل هذه الأمراض الخبيثة •

ويعقد الشاعر فصولا آخر للتمثيل •

ب - الركن الثانى الرسالة • وفى هذا العنوان فصول منها :

- أن مقصد الرسالة المحمدية الحرية والمساواة والأخوة بين

بنى آدم • ويقص فى هذا الفصل قصصا شتى •

- وأن الأمة المحمدية مؤسسة على التوحيد والرسالة فلا

يحدثها مكان

- وأن الوطن ليس أساس الأمة •

- وأن الأمة المحمدية لا يحدثها زمان • ودوامها موعود

- وأن نظام الأمة لا يكون بغير القانون • وقانون أمة

محمد القرآن •

- وأن نضج الأمة باتباع الشريعة الالهية •

- وأن حسن سيرة الأمة بالتأداب والآداب المحمدية •
- ٣ — حياة الأمة تقتضى مركزاً محسوساً • ومركز الأمة الاسلامية المحرم •
- ٤ — الاجتماع الحقيقى لا يكون الا بمقصد يقصد اليها • ومقصد الأمة
المحمدية حفظ التوحيد ونشره •
- ٥ — توسع حياة الأمة بتسخير قوى العالم • وكمال حياة الأمة أن
تحس ذاتها كما يحس الفرد • وينشأ هذا الاحساس ويكمل
بحفظ سنن الأمة •
- ٦ — بقاء النوع بالأمومة • وحفظ الأمومة وتبجيلها من قواعد الاسلام
- ٧ — السيدة فاطمة الزهراء أسوة كاملة لنساء الاسلام
- ٨ — خطاب الى المسلمات •
- ٩ — خلاصة مطالب المنظومة فى تفسير سورة الاخلاص •
- ١٠ — مناجاة المصنف الرسول الذى بعث رحمة للعالمين •
- وأعبر مع القارىء هذه الفصول عبّراً موجزاً كل الايجاز :

التمهيد فى ارتباط الفرد والجماعة

يبين الشاعر العروة الوثقى التى تربط الفرد بجماعته، يبين أن الفرد مرآة
الجماعة ، والجماعة مرآة الفرد • وهما كالجواهر والسلك ، وكالنجوم
والمجرة • الجماعة تنتظم بالأفراد • والفرد يقوّم فى الجماعة •
ثم يقول ان الفرد يفغل عن المقاصد ، وتنتشر قوته ، فتعلمه الأمة ضبط
النفس ، وتقيده بالقانون لتحرره •

فهاذا الواحد فى الجمع اتنى	فهو كالقطرة صارت خِضراً ما
جَمع الماضى له فى حَسَبه	والتقى الغابر والآتى به
وَصلة الغابر والمستقبل	وقته من أبد أو أزل
هو بالأمة قلب طامح	وهو بالأمة سعى رابح
روحه من قومه ، والبدن	سرّه من قومه والعكن

ويضى الى أن يقول : ان الفرد غلط فلم يميّز اثبات الذات من نفى

الذات . ويبين له قيمة الذات وقوتها ، وكيف تتجلى من خلوتها فإذا هي
مقسمة في الجماعة عاملة فيها .

— ١ —

الامة تنشأ من اختلاف الافراد وكمال تربيتها بالنبوة

يبين كيف تنتظم الجماعة من الأفراد ، كما يجذب النجم النجم ،
ويستحكم الكوكب بالكوكب .

ويقول ان الجماعة تسير سادرة غافلة ، بالمقاصد جاهلة ، لا تتجلى
قدرتها ، ولا تشخذ عزيمتها ، حتى يبعث الله فيها هاديا :

عازف "لحن حياة ينفث"	فاذا الطين حياة تبعث
ينثر الأتقى منه نفس	وبكأس منه بزهو مجلس
شقة تحبى وعين تجذب	وحّد الاثنين هذا الطلب
فترى الأمة منه سائرة	في لهيب منه حرى نائرة
شمر في قلبها يشتعل	فاذا الطنسة منها شعل

ويأتى هذا الهادى الى العقل فيجوه ويكسوه ويمده ، وينفخ النار
في موقده الهامد ورماده الخامد . ويحرر الناس من عبادة الاوثان والبشر
ويعبدهم للقانون والسُنن :

ويفك العبد من أغلاله	ويجحر القن من أقياله
صائحا أن لستَ عدأ لأحد	حررَكن نفسك لله الصمد

يجعل الشرع قيادا في اليد	يجذب الإنسان شطر المقصد
نكته التوحيد بوجيها اليه	أدب الطاعة يُمليه عليه

— ٩٥ —

اركان الامة الاسلامية

١ - الركن الأول التوحيد

هو الأكسير الذى يُحِيل التراب ذهبا ، والسرّ الذى يتجلّى منه الدين والشرع والحكمة والقوة والسلطان . وهو الدواء الذى يُميت الخوف والشك ، ويحيى العمل والأمل . ويقهر كل صعب ويذل كل عقبة . كلمة التوحيد هى الروح فى أمتنا ، وهى اللحن فى عودنا . وبها الحياة وبها القوة :

هو قلب ان حواها حجرٌ كلُّ قلب لم تُنرِه مَدْرُ
قد أضاء القلبُ من وقدها واستشاط الكون من آهتها

ويمضى الشاعر مبيتنا كيف جَمع الناسَ التوحيد ، وسوسى بين الأبيض والأسود ، الى أن يقول : أن أمتنا قائمة بالتوحيد لا بالنسب ولا بالوطن .

أمم قد عبّدت أوطانها وبنّت من نسبَ بنيانها
أترى الأوطان أصل الأمم
تعبّد الأرض بها كالصنم ؟

هذه الأنساب فخر السفهاء حُكْمها فى الجسم ، والجسم هَبَاء
ولنا فى الحق أسٌّ آخر هو فى الألباب منّا مُضَر
قد خلصنا من حدود وقيود قلبنا فى الغيب اذ نحن شهود
ثم يتكلم اقبال عن الخوف واليأس وأثرهما فى الحياة ويضرب فى هذا المثل بعد المثل .

ب - والركن الثانى الرسالة

يبين في هذا الفصل أن الرسالة تجمع أشتات الأفراد وتنظم منها الأمة. فتوحد كثرتها ، وتحكم ألفتها ، ويقول : ان المسلمين من الرسالة في دائرة مركزها الحرم ، ومحيطها غير محدود . ويبين كيف يربط الكتاب الحكيم بعض المسلمين ببعض الى أن يقول :

قد هدانا الحقّ هذا المرسل	في سبيل الحق نحن الشعَل
بحرّه أخرج هذا الجوهر	نحن رُوح واحد بين الوري
ختم الله علينا شرعته	وعلى المرسل فينا بعثه
مَحفل الأيام منا ينظّم	ختم الرّسل بنا والأمم

ثم يمضى اقبال في بيانه عن الرسالة حتى يضع هذا العنوان :

« مقصود الرسالة المحمدية المساواة والحرية والاخوة بين بني آدم »

فبيّن كيف كان الانسان عبدا للملوك والقيسين من النصرارى والمجوس والبراهمة . حتى بعث الرسول صلوات الله عليه ، فأعطى كلّ ذى حق حقه ، وحرّر الناس ورفع عنهم الآصار ، ووضع عنهم الأغلال .

قوة" هدت قديمات الصوّر	شيئت حصنا جديدا للبشر
أشرق الكون بها في الظلم	كعبة شنادت بيت الصنم

ويضرب مثلا في الأخوة الاسلامية ، قصة القائد الفارسى الذى أسر فاستأمن أسره فأمنه ، وهو يحسبه جنديا من الجند . فلما تبين أنه قائد أراد الجند قتله .

فقال قائد المسلمين أبو عبيد الثقفى : « لقد أمّنه واحد منا . ونحن

سواء» • وهى السنة التى سار عليها المسلمون وجاء فيها الحديث .
« المسلمون تتكافأ دماؤهم وبسعى بذمتهم أدناهم » •

ثم يقص الشاعر قصة أخرى : غضب السلطان مراد العثمانى على
مهندس بنى له مسجدا فلم يعجبه • فضربه فقطع يده • فسار المهندس
الى القاضى فدعا السلطان ، وحكم عليه بالقصاص • فتقدم السلطان
خائفا ماداً يده للقطع • فعفا عنه المهندس •
وينتهى الشاعر الى عنوان آخر :

الامة المحمدية مؤسسة على التوحيد والرسالة

فلا ينحد- مكانها

لا ترى المسلم يحويه عطن	تأيه" فى قلبه كلّ وطن
حصّل القلبَ فقى وُسعته	ضلّ هذا الكونُ فى فسحته
عقّدة الأقوم حلّ- المسلمُ :	هجّر الدار النبىّ الأعظم
أمّة ملء البرايا أسسا	وضع التوحيدَ فيها أسسا
أسبغ الفضلَ علينا وهدى	صيّر الأرض جيعا مسجدا

ويعقب هذا العنوان عنوان آخر :

الوطن ليس اساس الامة

يقول فيه أن العصبية الوطنية قطعت أرحام الأمم • وبيّن كيف هجر
النصارى دين عيسى « وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب با لدبهم
فرحون » •

ويذكر مكيافلى الايطالى وأثره فى سياسة أوروبا الى أن يقول :

جعل الملكَ الاها دينه	كل قبح ناله تحسينه
وزن الحقَ بربح وجدى	ولدى الملك خنوعا سجدا
صيّر الحيلة فتنا محكما	فزا الباطلُ مئا علما

ثم يثبت الشاعر هذا العنوان :

الامة المحمدية ، ليس لها نهاية زمانية

فيبيّن ، كما بيّن من قبل ، أنها أمة لا تفتنى ، لأنها قائمة على أصول خالدة لا ينال منها قلب الزمان ، وكرور الأيام .

ثم يبين ما أصاب المسلمين من مصائب ، ويذكر فتنة التتار ويصف أهوالها . ثم يقول : ولكن المسلمين سلموا من هذه النار كما سلم الخليل . بادت الأقوام ، وفنيت الأجيال . وثبتت الأمة الاسلامية على الخطوب الجسام ، والحوادث العظام

أمة الاسلام تبقى أبدا وأذان الحق فيها خلدا
أحيت العشقَ قلوب تسمع شبها من « لا اله » السرر

ويبضى الشاعر الى هذا العنوان :

لا تنتظم أمة بغير شريعة . وشريعة الامة الاسلامية القرآن

فيبيّن أثر النظام في الأمم ، وفي النبات والجماد وغيرها بيانا موجزا قائلا :

من نظام الصوت تبدو النعمة
انما في الخلق موج من هواء
صاح هل تعرف مادستورنا ؟
الكتاب الحى والذكر الحكيم
نسخة الأسرار من هذه الحياة
قوة فه تشدد الخورا
وهو من دون نظام ضجّة
يعلق النظم به فهو غناء
كيف في الدهر مضى تديرنا ؟
حكمة في الدهر تبقى لاتربم
يستمد الضعف أيندا من قواه
وبها يرمى الزجاج الحجر

الى أن يقول :

الذى يثدع منه الجبل وعلى الأفلاك منه وجَل
ذلك الينبوع من آماننا قد حواه الصدر من أطلاقنا

ويذكر اقبال المسلم العربى الذى ربّاه القرآن حتى :

شمل الدنيا جميعا عدته عَرَشَ جَمِّ وطلته رجله ١
مُدًّا قَد شَيَّدت هَبْوته ورياضا أنبتت وردته

ويصل هذا الفصل بآخر يشبهه عنوانه :

نصح سيرة الامة من اتباع الشرع الالهى

فبين دعوة الاسلام الى القوة ، وتقوية المسلم بالشرعة .
ويقول ان الشرع يريدك حين الحرب ، شعلة تذيب الصخر . ويمتحن
قوتك بالصعاب ، ويضع فى طريقك العقاب ، ويقول لك انسف الطود
بمزمتك ، واسحقه بضربتك . ويهيك بالعمل عصبا من حديد .

ويمضى قائلا : ان المسلم القوى الذى نشأتة الصحراء ، وأحكمته
رياحها الهوجاء ، أضعفته رياح العجم ، فصار فيها كالناى نحولا ونواحا ،
وأن الذى كان يذبح الليث كالشاة ، تهاب وطء النملة رجلاه ، والذى كان
تكبيره يذيب الأحجار ، انقلب وجيلا من صفير الأطيوار . والذى هزىء
عزمه بشم الجبال ، غلّ يديه ورجليه بأوهام الاتكال . والذى كان ضربه
فى رقاب الأعداء ، صار يضرب صدره فى اللأواء ، والذى نقشته قدمه

(١) جم : جمشيد من ملوك الاساطير الفارسية

على الأرض ثورة ، كسرت رجلاه عكوبا في الخلوة ، والذي كان يمضى
على الدهر حكمه ، ويقف الملوك على بابه ، رضى من السعى بالتنوع ،
ولذله الاستجداء والتنوع .

ويلى هذا فصل عنوانه :

حسن سيرة الامة من التادب بالاداب المحمدية

ويقص في هذا الفصل القصة التي أجملتها حين الكلام على والد اقبال^٢
قصة السائل الذي آذاه اقبال ، فحزن والده لما رأى ووعظ ابنه واشتد
في تأنيبه .

ويزيد على ما أسلفت في ذلك الفصل قوله على لسان والده :

« ان فطرة المسلم الرحمة ، وللرحمة يده ولسانه في هذه الدنيا . وان
الرسول بعث رحمة للعالمين ، فان بعدت عن سنته فلست منّا .

أنت طائر في بستاننا ، تغرّد بتغريدنا . فان تكن ذا نعمة ففى بستاننا
فمنّ بها . كل حى تهلكه العناصر المضادة . فان تكن بلبلا ففى الروض
طيرانك وتغريدك ، وان تكن عثاقبا ففى الصحارى مسرحك ومصيدك .
وان تكن كوكبا فاضىء فى حياكك ولا تحد عن أفلاكك .

الى أن يختم الفصل بقوله :

ان طينة المسلم الطاهرة لؤلؤة ، من بحر النبى ماؤها ولألاؤها . فياقظرة

(٢) ص ١٧ من هذا الكتاب

ليمان غوصى فى بحرہ ، ثم اصعدى درتہ من دترہ^١ وكونى فى الدنيا أضوا
من الشمس ، وليدم ضوءك على الدهر أبدا »
ثم انظر خلاصة الفصل الذى عنوانه :

— ٣ —

حياة الامة تقتضى مركزا محسوسا ومركز الامة الاسلامية الحرم

يبدأ الفصل قائلا : أحل لك عقدة من أمر الحياة وأنبئك بسر الحياة •
ويصف الحياة فى فرارها وقرارها ، الى أن يقول :
ان الحياة طائر لا عش له • انها ليست الا الطيران • انها طائر طليق وفى
القفص حبيس ، يخلط تفريده بنواحه • الحياة تمعد العقد فى أمورها ، ثم
تحل ما انعقد بتديريها •
ان الحياة السريعة تقيد قدمها فى الطين ، لتزيد لذة نمائها ومسيرها كل
حين • وان فى حرقتها ألعانا لا تنفد ، وان وليد يومها الأمس والغد •
هى كالرائحة حركة لا تقرر ، ولكن تسكن الصدر فتصير نفسا حيا •
عقّد الحياة فيها ورق وثمر كالحبّة ، تفتح عينها على نفسها فاذا هى
شجرة • وتلبس الحياة خلعة من الماء والطين ، فاذا هى حواس مدركة • «
يعنى أن الحياة وهى دائبة السير والتقلب لا تتجلى الا فى صورة ثابتة
محدودة • ويقول بعد :

(١) يرسم القلم ان تطرات مطر نيسن (ابريل) تنزل فى الاسداف لتنتطبق عليها حتى
تصير لؤلؤة

كذلك سنّة ميلاد الأمم ، أن تجتمع الحياة في مركز • المركز من الدائرة كالروح من الجسد ، أن خطئها مضمر في نقطتها •

بالمركز انتظام الأقوام ، وبالمركز يقدر لها الدوام • وان سرنا في الحرم، وفيه بكاؤنا وغناؤنا لاجرم :

بستاننا من نداء زاهر ، وزرعنا من زمزمه ناضر • وبه علا في الدنيا صوتنا ، ووصل قديمنا حديثنا • ان التمام الملة البيضاء من الطواف بالحرم • به توحدت كثرتنا ، واستحكمت بقيد الوحدة عزيزتنا «

ان الاجتماع روح الأمم ، والاجتماع هو السرّ في هذا الحرم •

ثم يضرب الشاعر مثلا باليهود تقطعوا في الأرض حين فقدوا المركز •

ويختم الفصل قائلا :

ياشاكيا جور الزمان ، ويا أسير الوهم والحسبان ! اجعل قميصك ثوب الأحرار ، وأطلع الصبح في هذا الظلام • واستغرق كأباك في السجود ، حتى تكون سجدة للواحد المعبود • ان المسلم الأول خضع للخلاق ، فسيطر على الآفاق • ومشى على الشوك في سبيل الحق ، فأثبت الورد في الغرب والشرق •

— ٤ —

الاجتماع الحقيقي بالسعى الى المقصد
ومقصد الامة المحمدية حفظ التوحيد ونشره

يبدأ الفصل قائلا :

أعلمك لغة الكائنات ، ان أعمال الحياة حروف واضحة وكلمات •

— ١٠٣ —

ويبين الشاعر أثر المقصد في الأمة كما بيّن أثر المقصد في الواحد في كتاب أسرار خودى . فيقول ان مقصد الحياة سر بقائها ، وبه يأتلف ماتفرق من قواها . واذا تنبّهت الحياة مقصدها ، وجّهت أسباب العالم اليه . وتوجهت نحوه تجنى وتنقى وترده . انما هام قيس في الصحراء ، من أجل محمل ليلى . وقد هجرنا الصحارى حين سكنت ليلانا المدائن .

واقبال معجب بالصحراء رياحها وشمسها ، وسمتها ، والضرب في أرجائها يرى فيها قوة النفس ، ومضاء العزم

ثم يقول :

ان المقصود هو روح العمل ، يستمد كل عمل منه كيفه وكمه .

فلتكن كالمجنون هياما بمقصدك ولتطف بهذا الشمع كالقراش^١ ان من يفعل نقسا واحدا يبعد عن المنزل ألف فرسخ .

ثم يقول ماقال قبلا : ان الكون يعمل جاهدا حتى يبلغ مقصدا من مقاصده . فهو يفرس ألف مقصبة ليظفر بأثة من ناي^٢ . وكم صوّر ورمى وكسر حتى أثبت صورتك في لوح الحياة . وكم بث ثواحا في النفس حتى صعد صوت أذان . وكم حارب الأحرار ، ونصر الأشرار ، وبذر الايمان في طين الانسان حتى قرأ على لسانك كلمة التوحيد .

وهنا يبلغ ماقال في العنوان أن مقصد الأمة المحمدية حفظ التوحيد

(١) بشر الى قصة مجنون ليلي

(٢) الناي يتخذ من قصب . فالطبيعة تبيت الف مقصبة حتى تخرج نابا واحدا

اي ان الرمي والكمال ليهامصب بطره

ونشره • فيبين خطر التوحيد وقيمه ويقول انه مركز دوران العالم ،
ومنتهى أمره - الى أن يقول :

ان نعماته كامنة في موسيقى الكون ، وان- هذه الموسيقى لتنتظرك أيها
العازف ... ان في دمك مئات الالغان ، فهيّا فاضرب على أوتارها ...
فان في التكبير سر كيائك ، وحفظ « لا اله » ونشرها مقصود حياتك •
ويفيض اقبال في بيان تبعة المسلم في اعلاء الحق ، وأن دين الاسلام قرين
الحياة ، ولا تكون الحياة الا به • الى أن يقول :

ان- فكّر الانسان ناحتَ صنم ، وعابد صنم • يخلق في كل زمان
صنما • وقد جدّد اليوم لنفسه أوثانا من اللون والنسب والوطن •

وان الانسانية ذبحت على أقدام هذه الاوثان • فهيّا ياريب التوحيد ا
وامحُ بسيف التوحيد هذا الباطل اللابس ثوب الحق •
ويختم الفصل بقوله :

انى لأرعد من خزيك يوم يسألك الرسول • قد أخذت منا كلمة الحق،
فلماذا لم تسلكها الى الخلق ؟

— ٥ —

ويبضى الشاعر الى فصل عنوانه :

توسيع حياة الامة بتسخير قوى العالم
وكمالها ان تحس نفسها كالفرد وتحفظ سننها

يقول ان هذا العالم مسخّر للانسان ، وان للانسان فيه جهادا ، وأن
لذة الانسان وكماله في هذا الجهاد • ومن سخّر المحسوسات فقد أنشأ

عالما من ذرّة • ان الجبال والصحارى والبحار لوح لأرباب النظر • أيها
النائم بالأفيون ، والمحتقر عالم الأسباب • افتح عينك ، واعرف قدر
هذا العالم • ان غايته توسيع « ذات » المسلم وامتحان مكنياته • ان
الزمان يضربك بسيفه ، ليشعرك ان فى بدنك دما •

وان الله جعل هذه الدنيا نصيب الاخيار ، وجلا محاسنها لعين المؤمن •

هذه الدنيا طريق للقافلة ، هذه الدنيا امتحان لقوة الايمان • فسخرها
لثلاث سخرتك •

ان فكر الانسان يسبح فى العالم ليسخر قواه ، ويتصرف فيه فنون
التصرف • فاركب الهواء ، واصدع الجبال ، واستخرج اللؤلؤ من البحار •

ان فى هذا الفضاء مائة عالم ، وان شموسا كامنة فى كل ذرّة : فاطهر
الأسرار ، واكشف الحفايا للانظار • ان هذه النجوم ثابتها وسيارها ، هذه
التي اتخذها القدماء آلهة ، ليست الا عبيدا خاضعة لك ، مسخرة لأمرك

الى أن يقول :

ان القطرة التي تدرك نفسها ، تنقلب فى عروق الكرم خمرا ، وعلى أوراق
الورد ندى ، وفى قاع البحر در •

ويختم الفصل قائلا :

يامن عىّ حماره فى طريق الحياة ، ومن غفل عن معركة الحياة ! قد بلغ
المنزل رفاقك ، وأنزلوا ليلى من حملها • وأنت كئيس فى الصحارى هائم ،

انّ فى علم الأسماء « قيمة الانسان ، وان فى حكمة الأشياء قوة
الانسان » •

ويمضى اقبال فيبين ان كمال حياة الأمة أن تحس نفسها كالفرد ، وأن نشأة هذا الاحساس وكماله بحفظ سنن الأمة •

فيبدأ بالحديث عن الطفل ، لا يدرك ذاته ولا يعرف الا أمته •
مولع بالرضاع والبكاء والنوم ، ومغرم بالطلب والسؤال كل حين •
فكره في كل أمر ، وقابل لكل نقش ، وهو عالة على غيره •

حتى يقع نظره على نفسه فيقول « أنا » وتعرفه بنفسه الذكرى وتربط
أمسه بغده • فتنظم أيامه في هذا السلك الذهبي ، كما ينتظم اللؤلؤ • ويتغير
بدنه كل ساعة ولكن يقول في نفسه :

« هأنذا كما كنت » • « أنا » هذه فاتحة الحياة ، ونعمة اليقظة في
موسيقاها •

وكذلكم الأمة الوليدة تنشأ كالطفل ، ترى غيرها ولا تبصر نفسها •
وتتقلب بها الواقعات حتى تعرف نفسها وتصل بالذکر ماضيها وحاضرها •
ويضىء لها الطريق تاريخها • • فإن نسيت واقعاتها ارتكست في العدم •

أيها العاقل ! ان اتصال أيامك ، هو الخيط الذي يمسك كتاب وجودك •
اتصال الأيام ثوب لنا ، خياطه ^١ حفظ السنن القديمة • ما التاريخ يا غافلا

(١) الخياط الابرة

غن نفسه ؟ أترأه قصصا وأحاديث وخرافات ؟ انه الذى يعرفك نفسك ،
ويصترك طريقك . انه حرارة الروح ، وأعصاب الملة . انه المسن الذى
يشحذك كالخنجر ، ثم يضرب بك فى هذه الدنيا .

ويمضى الشاعر فى بيانه واحسانه حتى يقول

أحكيم تاريخك تحكم نفسك ، وصل بيومك أمسك . ان حالك يطلع
من ماضيك ، ويشرق من حالك آتيك . فان ترد الحياة الخالدة فلا تقطع
سلسلة هذه الثلاثة . انما الحياة موج هذا التسلسل .

— ٦ —

بقاء النوع بالأمومة . وحفظ الأمومة وتعليمها

من قواعد الاسلام

يتكلم فى هذا الفصل عن الأم ، يعلو قدرها ، ويبيّن فى الأمة
خطرها . ومهما يتفض شاعر فى الاشادة بالأمومة فقد رها أكبر ، وفضلها
أكثر .

يقول فيما يقول :

ان المسلم الذى لا يقدر المرأة قدرها ، لم ينل نصيبا من حكمة
القرآن . ان الأمومة رحمة ، ولها الى النبوة نسبة ، وانها لكاتبه سره
الأمة . ومن يفكر فى لفظ الأمة والأم تبين له دقائق الحكم . وقد
قال سيد الكائنات : الجنة تحت أقدام الأمهات . ان الأمة من صلة
الأرحام ، والحياة بدونها لا تبلغ المرام .

وبالأمومة تسير الحياة سيرها ، وتجلو أسرارها .

ثم يقول :

ربما تنجب بنت الزارع الجاهلة ، التي لا تحسن الكلام ولا تئين في الحِصام مسلما نجيبا غيورا ، للحق نصيرا • ان حياتنا من آلام الأم وصبحنا من ظلامها •

وهذه العقيم الرخيم ، ذات النظرات الثائرات ، الخالية من الأحمال • التي أضاء بنور الغرب فكرها ، واختلف باطنها وظاهرها ^١ قد قطعت أوصال الملة البيضاء ، حين نثرت نظراتها الرعناء • حررتها وقاحة وفتنة ، وصفاقة وجرأة • لم يطق حَسَل الأمومة عِلْمُها ، ولم يضىء في ليلها نجما ^٢

الى أن يختم الفصل قائلا :

ان ثروة الأمة قادتها الهادون ، لا الأمتعة والفضة والذهب • وان رأس مالها نسل شديد ، ذو فكر خصب وعزم حديد • الأمهات للأخوة حافظات ، وعلى القرآن والأمة قائمات •

— ٧ —

سيدة النساء فاطمة الزهراء اسوة كاملة للمسلمات

يصف في هذا الفصل فاطمة البتول رضى الله عنها بما هي أهله • ويذكر ولديها الكريمين الحسن والحسين •

ويقول :

قد أدبها الصبر والرضا ، فهي تتلو الكتاب وتدير الرحى • وكهم ذرفت في الصلاة الدموع ، من القنوت والخشوع •

(١) يقول : هي في الظاهر امرأة ، وفي الباطن ليست امرأة
(٢) لم تسعد بولد

لولا نهى الدين ، وأمر النبي الأمين ، لطفت حول تربتها وسجدت على
ترابها .

— ٨ —

خطاب الى المرأة المسلمة

خَلَقْتِكِ الطاهرة لنا رحمة ، وأنت قوة الدين وحِصن الملة . يا من
تفطين فينا الوليد ، على كلمة التوحيد ، ان جبك لينحت أطوارنا ،
ويصور أعمالنا وأفكارنا . وبرقنا الذي ربّاه سبحانه الوضاء ، غشى
الجبال وطوى الصحراء .

يا أمينة على الشرع المبين ، ان في أنفاسك حياة الدين .

ان هذا العصر ذو فتون ، قافلته تقطع طريق الدين . وقد عمى ادراكه
فأنكر الخالق ، وقيّدت سلاسله كل مارق .

صيده يخال نفسه حرّاً ، وقتيله يسمى نفسه حيّاً . لا تسلكي الا
سبيل الآباء ، ولا تبالي بما تلقين من عناء .

احذري الزمان في سيرك ، وضمي أولادك الى صدرك .

هذه المصافير بعدت من أعشاشها ، قبل أن تطير بها أجنحتها

يا فطرة " نزاعة الى العلاء ، لا تغمضي عينك عن سيرة الزهراء .

لعل حُسَيْنَا في حجرك يَزهر ، فيترعرع بستاننا ويَنْضُر .

— ١١٠ —

ويختتم الشاعر منظومته بفصل عنوانه :

— ٩ —

خلاصة مطالب الكتاب بتفسير سورة الاخلاص

ولا أجد حاجة الى تلخيصه ، على ما فيه من معان قيّمة وصور رائعة ،
وحسبى ما أجملت آنفا من فصول المنظومتين •

عبرت مع القارىء منظومتى الأسرار والرموز ، واستخلصت له
مقاصدهما ، وأجملت له مطالبهما ، ودللته بالقليل على الكثير ، وبالزهرات
على الروض النضير •

آثرت أن أصل التلخيص بالأدب أكثر مما أصله بالفلسفة • وكذلك
أراد الشاعر أن يلبس فلسفته ثوبا من الشعر يجعلها ويقرّ بها الى القراء •

الفصل الرابع

أوجه أخرى لفلسفة اقبال

أساس فلسفة اقبال الذاتية ، تدور آراؤه على محورها ، وتتفرع أفكاره
من أصلها ، ولكن لفلسفته أوجها كثيرة منها ما عرفه القارىء فيما عرضت
عليه من فصول المنظومتين أسرار خودى ورموز بن خودى • ومنها
ما يتجلى فى دواوين أخرى • ومنها ما أبانه فى لغة الفلسفة لا الشعر ،
فى محاضرات ومقالات كثيرة •

ولا يتسع المجال لتفصيل القول فى أوجه فلسفة اقبال التى لم يرها

القارىء فيما أسلفت من فصول هذا الكتاب • وقد تعمدت أن يكون هذا الكتاب أقرب الى الأدب من الفلسفة ، كما اختار محمد اقبال الشعر لفلسفته فى معظم أصولها وفروعها •

وحسبى فى هذا الفصل أن أعرض على القارىء هذا الاجمال •

— ١ —

ذكرت فى سيرة اقبال أنه ألقى محاضرات فى مدراس وچيدر آباد وعليكره سنة ١٩٢٨ م • ألقاها باللغة الانكليزية

وهذا ثبتت هذه المحاضرات :

- ١ — العلم والدين
- ٢ — والوحى الدينى فى معيار الفلسفة
- ٣ — وادراك الله ومعنى الصلاة
- ٤ — والنفس الانسانية حريتها وخواودها
- ٥ — وروح الثقافة الاسلامة
- ٦ — والحركة فى العقائد الاسلامية
- ٧ — وهل التدين ممكن ؟

هذه محاضرات لا بد لدارس فلسفة اقبال من قراءتها ، ففيها آراؤة فى موضوعات عدة مجتمعة مرتبة فى لغة فلسفية •

طبعت المحاضرات فى اكسفورد وفى الهند وشاعت • وكتب لها المحاضر مقدمة مختصرة بدأها بقوله •

« الاسلام دين يتخى بالعمل أكثر مما يتخى بالفكرة • »
ويقول بعد أسطر قليلة :

— ١١٢ —

« لا ريب أن طوائف الصوفية الحققة قد عملت كثيرا في توجيه تطور الادراك الدينى. وتحديده ، ولكن المتأخرين من الصوفية جهلوا العقل الحديث فعجزوا عن تقبل الأفكار الجديدة . انهم يسيرون على طرائق نشأت في أجيال لها وجهة في الثقافة تخالف وجهتنا في كثير من الأمور .

مثلا نجد في القرآن الكريم : « ما خلقناكم الا كنفس واحدة » فأدراك الوحدة الحيوية التى تعنيها هذه الآية يحتاج الى نظرات طبيعية ونفسانية غير التى ألفوها .

« دعت الى هذه المحاضرة الجمعية الاسلامية فى مدراس وألقيتها فى مدراس وچيدر آباد وعلير . وقد حاولت فيها أن أسد- حاجة المسلمين بعض السداد ، حاولت أن أجدد بناء الفلسفة الاسلامية مراعى سنن الاسلام الفلسفية ، وأحدث ما بلغته المعرفة الانسانية . ولا شك أن هذا الوقت ملائم لهذه المحاولة .

« ان علم الطبيعة تعلم أن ينقد قواعده . فأدى هذا النقد الى أن اختفت هذه المادية التى جعلها العلم الطبيعى ضرورة أول الأمر .

« وأحسب أن ليس بعيدا اليوم الذى يلتقى فيه الدين والعلم على وفاق لم يحزِره أحد من قبل .

« وينبغى أن نتذكر ألا نهاية للتفكير الفلسفى . ولعل تقدم المعرفة واتضح سبيل للتفكير جديدة ، يؤدىان الى آراء جديدة . وعسى أن تكون أصح من الآراء التى أعرضها فى هذه المحاضرات .

« ان علينا أن نعنى بمراقبة تقدم الفكر الانسانى • وتقوم منه مقام الناقد المستقل - »

— ٢ —

نظرة في هذه المحاضرات

كان الفيلسوف الشاعر فى هم دائم ، وحن مستمر ممآ آل اليه أمر المسلمين فى الفكر والعمل •

وقد فكر كثيرا فيين فلسفته التى عرفنا بها آتفا ، ثم خص العقائد الاسلامية بهذه المحاضرات القيمة •

وكان يريد أن يسميها « الاسلام كما أفهمه » ثم سمأها الاسم الذى شاعت به •

وكان اقبال ، حين أدركته المنية ، يعدّ العدة لكتاب واف فى التشريع الاسلامى • فأى خسارة خسرها المسلمون بوفاة محمد اقبال قبل أن يخرج لهم هذا الكتاب •

يئن اقبال ما قصد اليه فى محاضراته بقوله فى احداها ، ميئنا صلة المسلمين بفلسفة أوربا وحاجتهم الى النظر فى آرائهم الدينية بعد ما كشف عنه العلم من حقائق فى الكون وطرائق للنظر :

« ان أظهر ظاهرات التاريخ الحديث سرعة اتجاه المسلمين اتجاها روحيا شطر الغرب • وليس فى هذا خطأ • فثقافة أوربا ، فى جانبها العقلى ،

ليست الا استمرار التطور فى جوانب مهمة من الثقافة الاسلامية . والذى نخشاه أن يقف المسلمون عند المظاهر البراقة فى هذه الثقافة الأوربية فلا يدركوا حقيقتها ، ويفقهوا بواطنها .

لقد لبثت أوروبا فى عصور غفوتنا الفكرية ، جادة تفكر فى المسائل الكبيرة التى عنى بها فلاسفة المسلمين وعلماؤهم كل عناية .

وقد تقدم الفكر البشرى الى غير نهاية ، منذ العصور الوسطى التى انتهت فيها فرق المتكلمين المسلمين . ثم تسلط الانسان على الطبيعة أوحى اليه ثقة بنفسه ، وإيماننا بتفوقه على ما يحيط به فى العالم . وعرضت للناس أنظار محدثة ، وأعيد النظر فى مسائل قديمة فى نور التجارب الحديثة، ونشأت مسائل أخرى لم تعرف من قبل . وكان عقل الانسان تفوق على كليياته الأساسية ، من الزمان والمكان والحدوث . بل أخذ تصورنا الأشياء يتغير بتقدم العلوم . فنظرية انشتاين غيرت نظرنا الى العالم ، وبيئت طرائق جديدة فى النظر الى مسائل يشترك فيها الدين والفلسفة .

فلا عجب اذا ، أن ينتظر ناشئة المسلمين فى آسيا وأفريقيا توجيهها جديدا لعقائدهم . ان يقظة المسلمين تقتضى أن ننظر ، ولكن بعقل مستقل ، ماذا فكرت فيه أوروبا ؟ وكيف نستعين بالنتائج التى بلغت ، فى إعادة النظر فى المذاهب الدينية الاسلامية ، بل إعادة بنائها ان لم يكن من هذا بد . »

ويتصل بهذا قوله فى محاضرة أخرى :

« ان على المسلم اليوم عملا شاقا . عليه أن يعيد النظر فى الاسلام كله دون انقطاع عن الماضى .

لعل شاه ولى الله الدهلوى أول من شعر بالحاجة الى نظر جديد ،

ولكن الذى أدرك كل الإدراك خطر العمل وسعته ، هو جمال الدين الأفغانى . وكان حريئاً أن يكون حلقة حيّة بين الماضى والمستقبل بنظره الثاقب ، ونفاذه الى حقيقة تاريخ المسلمين وتاريخ ثقافتهم ، الى ما أوتى من ادراك واسع يسرته له تجاربه فى الناس والأخلاق .

فلو قصر جهاده الدائب على الاسلام من حيث هو نظام للعقائد والأعمال الانسانية لكانت قواعد الفكر الاسلامى اليوم أقوى وأقوم .

ليس لنا اليوم الا أن نقوم من العلم الحديث مقام المكبر له القادر على تقده ، وأن نقوم الفكر الاسلامى فى نور هذا العلم ، وان أدنى هذا الى أن نخالف سلفنا .

هذا الشعور بحاجة المسلمين الى الأخذ من العلم الحديث أخذ الناقد المعتد بنفسه ، واعداد النظر فى المذاهب الاسلامية ، هو الذى أوحى الى اقبال أن يفكر التفكير الواسع العميق ، ويتناول الموضوعات العسيرة الخطيرة التى تناولها فى هذه المحاضرات .

أعرض على القارىء جملة مختصرة من هذه المحاضرات ومسائل قليلة ممّا فيها لعله يتشوف الى قراءتها كاملة والتأمل فيها ، وادراك معانيها ومراميتها .^١

١ - فى المحاضرة الأولى « العلم والادراك الدينى »

يبين اقبال فرق ما بين المعارف المستقاة من يتابع مختلفة . ويقول ان القرآن يسوّى بين نواحي الادراك الانسانى كلها فى الاستمداد منها لمعرفة الحقيقة النهائية .

(١) استعنت فى هذا التلخيص بكتاب صديقى الاستاذ سيد عبد الواحد .

ويقول : ولا بد ، من أجل ادراك هذه الحقيقة ، أن يصحب الادراك الحسى هذا الادراك الذى يسميه القرآن القلب .

وتكلم اقبال فى هذه المحاضرة عن قيمة الادراك الدينى فى المعرفة الانسانية . وبين قدر الالهام . وللالهام فى فلسفة اقبال مكانة عالية . وهو يرى أن الفكر والالهام ليسا متنافرين .

ب - وفى المحاضرة الثانية التى عنوانها « التمهيد الفلسفى للادراك الدينى »

يتحدث اقبال عن الامتحان العقلى الذى يمكن تطبيقه على المدركات الدينية . ويبين أن الادراك الدينى يقبل تمحيصا مشابها للتمحيص الذى تعالج به أنواع المعرفة الاخرى .

ج - وفى المحاضرة الثالثة التى عنوانها : « تصور الله تعالى ومعنى الصلاة »

يبين اقبال تصور الله تعالى فى القرآن ، ويقول ان أكبر عناصر هذا التصور ، من وجهة فكرية خالصة ، الخلق والعلم والقدرة والبقاء .

ومن أمثلة نظرات اقبال فى هذه المحاضرة قوله ان تسمية الله تعالى نورا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ينبغى أن تفسر تفسيراً آخر . قد يبين علم الطبيعة الحديث أن سرعة النور لا تمكن الزيادة عليها ، وأنها لا تختلف باختلاف طرائق الراصدين . فالنور فى العالم المتغير أقرب شئ الى الوجود المطلق . فتسمية الله بالنور مجازاً ينبغى أن يفسر ، فى هدى العلم الحديث ، بالاطلاق ، لا بالحضور فى كل مكان ، هذا الوصف الذى يؤدى الى عقيدة وحدة الوجود .

ويقول اقبال في هذه المحاضرة كذلك :

ان الحقيقة العليا ذات • ومن هذه الذات العليا تتجلى الذوات الأخرى بالخلق فحسب • والعالم في كل أجزائه ، من الحركة الآلية فيما نسميه الذرة المادية الى حركة التفكير الارادية في الانسان ، ليس الا تجليا من الذات العليا • وكل ذرة ذات حركة الالهية هي ذات ، مهما انحطت مكاتتها في الوجود •

وينتقل اقبال بعد هذا الى الكلام في الصلاة فيقول ما خلاصته :

الدين لا يقنع بالتصور فحسب بل يطلب اتصالا بمقصوده • ووسيلة هذا الاتصال العبادة أو الصلاة • الصلاة وسيلة الى استنارة روحية تعرف بها الذات الانسانية - هذه الجزيرة الصغيرة - أنها موصولة بحياة أوسع ، وكون أفسح • وكل طلب للمعرفة هو في حقيقته صلاة • فالباحث في العلم الطبيعي هو الصوفي في صلاته •

وتزيد الصلاة قربا من مقصودها بالاجتماع • وكل عبادة هي في جوهرها جماعية • والعبادة ، فردية كانت أم اجتماعية ، هي اعراب عن تلهف الوجدان الانساني الى استجابة له في صمت العالم الهائل •

ومن وحدة الذات الكبرى التي تخلق كل الذوات وتمدها تشأ وحدة النوع الانساني • والقرآن الكريم يقول :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا • »

صلاة الجماعة في الاسلام اعراب عن التطلع الى تحقيق الوحدة الانسانية برفع كل الحجب بين الانسان والانسان •
د - وفي المحاضرة الرابعة

يتكلم عن الذات الانسانية حريتها وخلودها . ويبين كيف عمّت المسلمين جبرية مشنومة ، على خلاف ما علّمه الاسلام ووكده من حرية الذات . ويقول ان هذه الجبرية التي عرفها الأوربيون في كلمة «قسمة» ترجع الى غلبة الفكر الفلسفي والى المطامع السياسية ، وضعف نبض الحياة التي بثها الاسلام في نفوس المسلمين .

ثم يقول اقبال :

نشأت ، على خلاف دعوة أئمة المسلمين ، جبرية مهلكة ، وشاعت نظرية الأمر الواقع لتحصيل منافع لبعض الناس ، وتيسير مطامعهم .

وليس هذا أمرا بدعا . فقد احتج فلاسفة محدثون بحجج عقلية على أن نظام رأس المال في الجماعة نظام أبدى .

حدث مثل هذا في تاريخ المسلمين ، ولكن درج المسلمون على التماس أدلة مذهبهم في القرآن ، ولو على خلاف معانيه الواضحة ، فكان للتأويل الذي يُحتج به على الجبرية آثار بالغة في الاضرار بالجماعة الاسلامية .

هـ - والمحاضرة الخامسة (روح الثقافة الاسلامية)

يقول فيها اقبال ان القرآن يبيّن أن الادراك الباطني ينبوع واحد من ينابيع المعرفة الانسانية . وللمعرفة ينبوعان آخران هما الطبيعة والتاريخ . وبالاستقاء من هذه الينابيع الثلاثة تبلغ الثقافة الانسانية أنضج صورها .

ويقول اقبال ان الفكر الاغريقي لم يحدد خصائص الثقافة الاسلامية .

ويقول : ان فكرة في الاسلام عظيمة لم تتقدر قدرها ولم تعرف قيمتها في الثقافة الاسلامية . وتلكم فكرة ختم النبوة . ان النبوة في الاسلام بلغت أوج كمالها اذ عرفت الحاجة الى ختمها . لا بد لكمال الوجدان

الانسانى من أن يوكل الى نفسه .

قد أبطل الاسلام سلطان الأجبـار والرهبان ، وألقى وراثـة الملك . ودعا القرآن الى الرجوع الى العقل ، والاعتبار بالتجارب . ووجّه النظر الى الطبيعة والتاريخ على أنهما ينبوعان للمعارف البشرية .

وكل هؤلاء أوجه مختلفة للفكرة نفسها ، فكرة النهاية والكمال .

ثم يقول المحاضر :

وأعظم خصائص الثقافة الاسلامية توكيدها فى الأنفس « تصور عالم - متحرك » وسنن مستمرة .

ومن قواعد الهدى الاسلامى أن الأمم والجماعات مأخوذة بأعمالها فى هذه الحياة . ولهذا يكثر القرآن من قصص الماضين ، ويأمر بالنظر فى تجارب الأمم غابرها وحاضرها .

ويقوم تعليم القرآن فى هذا الشأن على أصـلين :

الأول وحدة الأصل الانسانى . ويبيّن القرآن كثيرا أن الناس خلقوا من نفس واحدة .

والثانى قوة الشعور بأن الزمان حقيقى ، وتصور الحياة سيرا مستمرا فى الزمان .

وان يُدرك قادة العقول والأرواح فى الأمم حقيقة هذه الأصول الاسلامية ، يظفر الانسان بعالم للمعيشة أفضل من هذا .

و - والمحاضرة السادسة : « الحركة أصل فى التعليم الاسلامى »

تكلّم فيها الفيلسوف المسلم عن تصوّر الاسلام العالم على أنه عالم حركة . وقال ان الاسلام ينكر أواصر الأنساب ، ويعترف بالأواصر الروحية ، ويقرر أن حياة الانسان روحية في كنهها . ولا يمكن التطلع الى أساس نفساني تقوم عليه الوحدة الانسانية الا اذا عرفنا أن الحياة الانسانية روحية .

ويقرر الاسلام أن أصل الوحدة الانسانية في التوحيد . ان أصل الحياة كلها دائم يتجلى في مظاهر متغيرة . والجماعة القائمة على هذا الأصل ينبغي أن تجمع في نفسها هاتين الصفتين ، الدوام والتغير . ومن يتصور الأصول الدائمة الأبدية غير قابلة للتغير فقد وقف ما هو متحرك بطبيعته . »

ومعنى هذه الفقرات التي نقلتها عن اقبال ان حياة الانسان لا تحددها أنساب ، ولكنها قائمة على أصول روحية بها وحدة الانسان ، وأن هذه الحياة الروحية دائمة في أصلها متغيرة في مظاهرها . فالجماعة الانسانية ينبغي أن تقوم على أصول دائمة من عقائدها وسننها ، متغيرة في مظاهرها وأحوالها .

ثم يقول :

« والحركة في الجماعة الاسلامية بالاجتهاد . ويؤسفنا أن هذا الأصل الذي يهب الأمة الحياة لم يعمل عمله في المسلمين . ان من أقوى أسباب ضعف المسلمين اهمال هذا الأصل ، أعنى ابطال الاجتهاد . »

ثم يتكلم اقبال عن الاجماع أصلا من أصول الشرع الاسلامي . فيقول:

« والأصل الثالث من أصول الشرع الاجماع . وهو عندي أعظم السنن الشرعية . وعجيب أن هذه السنة الرشيدة نالت كثيرا من بحث المسلمين وجدالهم ، ولكنها لم تعد التفكير الى العمل . وقلما صارت سنة عملية

في بلد اسلامى • ولعل اتخاذها سنة دائمة ونظاما محكما لم يلائم مطامع الملك المطلق الذى نشأ فى الاسلام بعد الخلفاء الراشدين • ولعل ترك الاجتهاد لأفراد من المجتهدين كان أقرب الى منافع الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس ، من تأليف جماعة دائمة عسى أن تفوقهم قوة •

ومما يبعث على الرضا والأمل أن سيرة الحوادث فى هذا العصر ، وتجارب أمم أوربا ، أشعرت الفكر المسلم الحديث بقيمة الاجماع وعرفته أنه ممكن • وشيوع النزعة الجمهورية ، ونشوء مجالس التشريع ، يمهدان السبيل الى العمل بسنة الاجماع • «

ز - وفى المحاضرة السابعة « هل التدين ممكن ؟ »

يقول اقبال : ذلكم سؤال يشغل الانسان فى كل عصر ولا سيما فى عصرنا ، والعالم كله يلتمس أساسا يبنى عليه وثام الناس وسلامتهم •

ويقول :

« ان الدين فى أعلى صورته ، ليس أحكاما جامدة ، ولا كهنوتية ، ولا أذكارا • ولا يتيسر الا بالدين تهيئة الانسان المعاصر لحمل العبء الثقيل الذى يحمله اياه تقدم العلوم فى عصرنا • والدين وحده يرد الى الايمان والثقة للذين ييسران له اكتساب شخصية فى هذه الدنيا والاحتفاظ بها فى الآخرة •

ولا بد للانسان من الارتقاء الى تصور جديد لماضيه ومستقبله ليستطيع التغلب على المجتمع المتنافر المتصادم ، ويقهر هذه المدينة التى فقدت وحدتها الروحية بالتصادم الباطنى بين الدين والمطامع السياسية •

والحق أن سير الدين والعلم ، على اختلاف وسائلهما ، ينتهى الى غاية

واحدة ، بل الدين أكثر من العلم اهتماما ببلوغ الحقيقة الكبرى . اهـ

هذه نظرة عاجلة في بعض ما حوته هذه المحاضرات . وهي جديرة
بعناية من تعينهم أحوال المسلمين في هذا العصر .

— ٣ —

أثر اقبال في افكار المسلمين

في الخمس عشرة سنة التي مضت من وفاة اقبال الى يومنا هذا ، ألفت
كتب باللغة الأردية والانكليزية في سيرته وفلسفته ، وفي صلة هذه الفلسفة
بالاسلام ، وبيان التشابه بين اقبال وبين فلاسفة آخرين أو بين شعره
وشعر غيره من كبار الشعراء . كتب في هذه الموضوعات زهاء أربعين كتابا .

وكتبت مقالات كثيرة . وتنشر في لاهور مجلة اسمها اقبال تنشر
مقالات بالأردية والانكليزية في فلسفة اقبال وشعره

تجد في هذه المجلة مثل هذه المقالات :

التطور في فلسفة اقبال

الفن في مذهب اقبال

ابليس في تصور اقبال

فلسفة الذاتية عند اقبال

اقبال ومسألة الاجتهاد

معنى العشق في شعر اقبال

معنى الفقر في شعر اقبال

ولا تكاد تخلو مجلة أدبية في باكستان من مقال عن اقبال

(١) ترجم صديقي الاستاذ عباس محمود هذه المحاضرات الى العربية. ويرجى ان تطبع قريبا

وفى يدى الآن مجلة باكستان^١ ، عدد نيسان ، وفيه هذه المقالات •
 اقبال شاعر الاسلام — اقبال رسالة أمل مشرق — اقبال والوطنية —
 اقبال الشاعر الفيلسوف — بيت^٢ من شعر اقبال — اقبال ومسجد قرطبة •

ونجد الكتاب يبينون عن آراء اقبال اجمالا وتفصيلا ويستشهدون بما
 كتب في الفلسفة ، وبما جاء في شعره • وشعره فصول فلسفية فى صورة
 شعرية كالاسرار والرموز اللذين أجملتهما آتفا ، أو شعر يتضمن فكرا
 متفرقة من فلسفته، ولثما مختلفة من آرائه ينظمها الكتاب بعضها الى بعض
 لييتوا المذهب الذى نشأت عنه هذه الأقوال •

عرض هذا الشاعر الفيلسوف على العقول ما أيقظها وشغلها ، وعلى
 القلوب ما أنبضها وأثارها •

ولا يزال الباحثون يجدون فى فلسفته وشعره ما يشغل أقلامهم ، ويملا
 صحفهم على كثرة ما كتبوا • فماذا عسى أن أفصل من فلسفة اقبال ؟
 وكيف أحاول الاحاطة بها فى كتاب هو أول ما كتب فى لغتنا العربية عن
 هذا الشاعر ، سيرته وفلسفته وشعره •

وانما قصدت الى أن يكون هذا الكتاب مقدمة لقراءة دواوين اقبال التى
 ترجمتها الى العربية ما طبع منها وما يطبع ان شاء الله •

وقد كتبت لهذه الدواوين مقدمات فيها طرّف من فلسفة اقبال ولا سيما
 الآراء التى هى موضوع الديوان • فلعل القارئ المتقصى يضم هذه
 المقدمات الى هذا الكتاب ليتبين سيرة اقبال وفلسفته •

الفصل الخامس

اجابة اقبال المعترضين على فلسفته في اوربا

ترجم الاستاذ نكلسون منظومة أسرار خودى الى الانجليزية وكتب لها مقدمة أثبت فيها ما كتبه اقبال اليه ايضا فلسفته^١ فاهتم بها بعض المتفلسفين هناك .

وكتب بعضهم نقدا لآراء اقبال . واعترض بعضهم على فلسفته بأنها فلسفة قائمة على تعظيم القوة والدعوة اليها ، كملسفة نطشه الفيلسوف الالماني ، وبأنها فلسفة ليست انسانية عامة ، بل تخاطب أمة من الناس هي أمة المسلمين .

وأجاب اقبال موضحا مذهبه ، راداً على من قرئوه بنطشه ومن عابوا على فلسفته أنها تخص المسلمين .

وأجمع جواب في هذا الموضوع ما كتبه اقبال الى الأستاذ نكلسون . نسأكتفى به ، ثم أكتفى منه بخلاصته :

يبدأ اقبال الكتاب بالأعراب عن سروره باهتمام المفكرين بكتابه حين تُرجم الى الانكليزية .

ثم يقول ان بعض النقاد الانكليز رأوا مشابهة ظاهرية بين أفكاره وأفكار نطشه فوقعوا في غلط كبير . ويرد على من زعم أنه أخذ نظرية الانسان الكامل من نظرية نطشه في الانسان الذى سَماه فوق البشر (Superman)

(١) بينا هذا في الفصل الاول من هذا الباب .

ويقول انه كتب قبل ثلاثين سنة ، مقالا عن الانسان الكامل عند الصوفية ولم يكن حينئذ اطلع على كتب نطشه ولا سمع باسمه .

ويمضى اقبال الى أن يقول في خطابه الى الاستاذ نكلسون :

أعجبنى نقد دِكْسَن أكثر من كل نقد فأنا أعالج المسائل الآتية في تقده :

(١) المسألة الأولى :

يتبيّن مما كتبه مستر دِكْسَن الى " أنه يرى أنى أحت على السعى الى القوة المادية بل أبلغ في تعظيمها درجة العبادة . والحق أن هذا غلط محض . فدعوتى الى القوة الروحية لا القوة المادية .

أرى أن محاربة أمة أمة لحماية الحق والخير فرض أخلاقي عليها ولكن محاربتها لأجل « جوع الأرض » حرام في رأيي^١ .

وحقّ قول دِكْسَن ان الحرب مدمرة سواء أكانت لنصرة الحق أم لبسط السلطان فيجب تجنب الحرب ، ولكن التجارب ترينا أن المؤتمرات، والمعاهدات ووسائل أخرى لا تمنع الحرب . وان مُنعت الحرب ظاهرا بأحدى الوسائل اتخذت الأمم ذوات المطامع ذرائع أخرى لاستعباد أمم أضعف منها . فلا بد لنا من شخص يحلّ مشاكلنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ويفصل في خصوماتنا بالعدل وقيم الأخلاق الدولية على قواعد أثبت وأمتن^٢

(٢) المسألة الثانية :

(١) انظر اسرار خردى ، والفصل الثانى من هذا الباب ص ٨٦ وما بعدها

(٢) انظر فصل النبابة الالهية في اسرار خردى وفي هذا الكتاب ص ٥٩ وص ٨٤

ثم يذكر دِكْسُنُ فلسفة الكدح التي تدعو الى الرجولة والصلابة، وهذه الدعوة قائمة على معنى الحقيقة الذي بينته في المنظومة . أرى أن الحقيقة هي مجموعة الشخصيات أو «الذاتيات» وأن تأليفها الاجتماعى ينشأ من الجِلاَد . ومن هذا الجِلاَد ينشأ الانتظام والائتلاف آخرا .

هذا الجِلاَد ضرورى للبقاء الشخصى وهو أعلى درجات الحياة

نظمه ينكر البقاء الشخصى . وغلظه في هذا نتيجة غلظه في تصور الزمان أو الدهر . هو لم يبحث في مسألة الزمان من الجانب الانسانى . . وأنا ، على خلافه ، أعتقد أن البقاء الشخصى أعظم الآمال ولا بد له من الجِد والجهد الكاملين . لهذا دعوت الى الحركة والجد والكدح وكل ضروب العمل ، بل الحرب ، حتى تستحكم الذات . ولهذا نهيت كل النهى عن جبود الصوفية ، وسكون الرهبان .

وهذا الجِلاَد الذى أدعو اليه هو في حقيقته أخلاقى لا سياسى . ولم يقصد نظمه الا الى معناه السياسى .

(٣) المسألة الثالثة :

واعترض مستر دِكْسُنُ على فلسفتى بأن دائرتها محدودة وان كانت أصولها عامة (يعنى أن اقبالا خاطب المسلمين ، وطبق فلسفته عليهم وحدهم) .

حق " أن الفلسفة والشعر ينبغى أن تكون لهما مقاصد انسانية عامة ، ولكن هذه المقاصد اذا أريد تحقيقها في أعمال الحياة لم يكن بد من تحقيقها أول الأمر في جماعة بعينها لها مسلك معين ومذهب

مستقل ، ولكن طرائقها في العمل تتسع بالدعوة والتبليغ الى غير نهاية . وعندى أن هذه الجماعة هي الأمة الاسلامية . فالاسلام عدو لعصبيات الألوان والأجناس . وهي أصعب العقبات في سبيل اتحاد أمم العالم . - قد غلط رينان حين قال ان الاسلام والعلم ضدان . والحق أن الاسلام وعصبيية الأقسام لا يجتمعان - ان أكبر أعداء الاسلام ، بل الانسانية ، هذه العصبية . فعلى محبى الانسانية أن يجاهدوا جهد طاقتهم هذه العصبية التي اخترعها ابليس .

قد رأيت أن عالم الاسلام كذلك سرت فيه القومية والوطنية القائمتان على عصبية الأمة والوطن . ورأيت المسلمين يغفلون عن مقاصدهم العامة ، ويقعون في شباك القومية والوطنية فرأيت فرضا على - ، بأنى مسلم أو محب للانسانية ، أن أوجههم الى مقاصدهم الحق .

لا أنكر أن عصبيات القبائل والأمم نافعة ، الى حين ، في نشوء الحياة الاجتماعية وارتقائها ، فلست أعترض على الاهتمام بهذه العصبيات من هذه الجهة ، ولكن اذا عُدت القومية أعلى درجات الرقى الانسانى فهى عندى أكبر لعنة على الانسانية .

لا ريب أنى أحب الاسلام وأهيم بحبه ، ولكن خطأ قول دِ كسن أنى خصصت المسلمين بكلامى عصبية لوطن أو أمة . لم يكن لى وسيلة أخرى لتطبيق هذه الفلسفة . اذ رأيت الجماعة الاسلامية أكثر الجماعات ملاءمة لقصدى .

ثم الاسلام ليس من الضيق كما يتوهم دِ كسن . فالتعليم الاسلامى لا يخص قبيلة دون قبيل ، ولكن يقصد الى أخوة البشر كافة . فهو يدعو الناس أجمعين الى التعاون والتآخى ، وأن يغفل في هذه السبيل ما بينهم من اختلاف جزئى .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد
الا الله ولا نشركَ به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله . »

وأكبر الظن أن مستر دِ كسْتَن لا يزال في أسر الوهم القديم ، وهم
أهل أوربا أن الاسلام يدعو الى القتل وسفك الدماء . والحق أن سلطان
الله على الأرض ، لا يخص المسلمين بل يمكن أن يعمّ الناس أجمعين ، على
أن يتركوا عبادة الأصنام ، أصنام النسب واللون والقوم والوطن .
لا تَسْتَطِيع اسعاد الناس معاهدات الصلح ومجالس الأمم ، وأوامر الملوك .
لن يستطاع هذا الا بالاعتراف بحرية الناس وتساويهم دون نظر الى
نسب أو وطن ...

لا أنكر أن المسلمين كغيرهم خاصموا وحاربوا وسخّروا الأقطار ، وأن
بعض سلاطينهم ألبسوا مطامعهم لباس الدين ، ولكنى على يقين أن الفتح
والتسخير ليسا من مقاصد الاسلام ، بل أعتقد أن الفتح عاقت نماء النظام
المبارك ، نظام الشورى الذى نجد أصوله فى القرآن والحديث . ولم يكن
للمسلمين بدء من اقامة الممالك العظيمة فى أرجاء الأرض ، ولكنهم اضطروا
فى سبيلها الى العدول عن بعض سننهم القويمة . وغلب على أغراضهم
السياسية مَسْحَة غير اسلامية . فأغمضوا عيونهم عن سعة المقاصد
الاسلامية وعمومها .

لا ريب أن الاسلام قصد الى دخول الناس فيه ولكن دون اكراه ...
ان العقائد الاسلامية يسيرة معقولة . فهى توافق العقل السليم ، وتسلم
من تعقيد الفلسفة .

ان فى فطرة الاسلام مزايا تيسر له أن يبلغ أوج الظفر . انظر الى
الصين مثلا ، فيها من المسلمين عشرات الملايين دخلوا فى الاسلام بالدعوة ،
وما كان للمسلمين فى الصين سلطان سياسى . وفى هذا برهان على أن
الاسلام يفتح القلوب بغير سلطان سياسى ودون اكراه .

قد طالعت فلسفة العالم أكثر من عشرين سنة ففى وسمى أن أدلى برأى
بريئا من التعصب . وأن أتقد حوادث العالم غير متحيز .

انى أقصد فى دواوينى الى أن أضع أمام أعين الناس مثلاً عالية عمرانية
شاملة ، ولكنى لم أستطع حين صوّرت هذه المقاصد ، أن أغضّ البصر عن
نظام اجتماعى مقصده أن يحو بين الناس فروق الأشخاص والدرجات
والانساب والألوان ، ودَعَوته أن يعمل الانسان لدنياه ويعلو على مطامع
هذه الدنيا ما استطاع ولا يرجو الا رضاء الله . ان الاسلام يدعو
الى أن يأخذ الانساب نصيبه من الدنيا ثم يدعو أن تهجر كل لذات الدنيا
فى سبيل مقاصد الحياة العليا .

وان أوروبا محرومة من هذا التعليم ، هذا الكنز الثمين . وتستطيع أن
تأخذ عنّا هذا المتاع النفيس الذى لا يُقوّم .



ثم مسألة أخرى أختتم بها : ان الأقوال التى بعثتها اليك فأدرجتها فى
مقدمة أسرار خودى ، قد بيّنت مذهبى فى ضوء آراء مفكرى الغرب
ومذاهبهم . وانما اخترت هذه الطريقة لأيسر لقراء الانكليزية فقه
آرائى . ولو شئت لاستشهدت بالقرآن الحكيم ، وأقوال الصوفية
الكرام ، وحكماء المسلمين ، كما فعلت فى المقدمة التى أثبتتها فى الطبعة
الأولى لأسرار خودى .

انى أدعى أن فلسفة أسرار خودى مأخوذة من آراء صوفية المسلمين
وحكمائهم ، وأن أبحاث برجسانا فى الزمان والوقت ليست جديدة

عند صوفيتنا • قد بُيِّتت هذه المسائل في كتب التصوف بطرائق مختلفة •

القرآن المجيد ليس كتاب فلسفة أو الاهيات ، ولكن فيه هدى الى مقاصد الحياة وراقيتها ، وفيه أصول فلسفية يقينية • ولو أن مسلماً متفلسفا بيّن المسائل القرآنية في ضوء الأفكار والتجارب الحديثة ماصح اتهامه بأنه يقدم شراباً جديداً في زجاجة قديمة ، كما يقول مستر د كسّن • أنا لا أعرض أفكاراً جديدة في ثياب قديمة ولكنى أبيتن حقائق قديمة في ضوء الأفكار الجديدة •

ما أشد أسفى لجهل أهل الغرب الاسلام والفلسفة الاسلامية !

ليت الفرصة تتاح لى فأكتب في هذا الموضوع كتاباً ضخماً فأعلم حُكماء الغرب الحقيقة فيروا مقدار التشابه بين فلسفتنا وفلسفتهم •

الباب الثالث

شعر اقبال

أنظر في هذا الباب نظرات في دواوين اقبال وما فيها من فنون شعر .
وغنى عن البيان أنى لا أفصل القول في اللغة والتركيب والأسلوب اذ كان
هذا كتابا لقراء العربية الذين لا يقرءون دواوين الشاعر في لغتها الأردنية
والفارسية .

فسأقصر كلامى على تعداد دواوين اقبال وذكر موضوعاتها اجمالا ،
وعلى مذهب اقبال في الفنون الجميلة عامة والشعر خاصة وعلى نظرات
عاجلة في شعره .

وأقسم هذا الباب على هذه الفصول :

الاول : دواوين اقبال

والثانى : مذاهب النقاد ومذهب اقبال في الفنون الجميلة

والثالث : مذهب اقبال في الشعر ، وبيان هذا المذهب في شعره

والرابع : شعر اقبال ، موضوعه وأشكاله وأساليبه ، ولغته

والخامس : أمثلة من شعر اقبال

الفصل الأول

دواوين اقبال

أقصد في هذا الفصل الى تعريف القارىء بدواوين اقبال ، موضوعاتها ومقاصدها ولغاتها وأزمنتها ، دون تفصيل فيما تحويه من فلسفة وشعر .
وأجمل هذا التعريف تمهيدا للكلام في شعره .
والتعريف بهذه الدواوين على ترتيب زمانها . وليس من مقصدي ، ولا في مكنتي أن أنظر في تطور أفكار اقبال على الزمن . فهو موضوع يقتضى بحثا مطولا في كتاب كبير .

— ١ —

بانك درا (في اللغة الاردية)

ديوان بانك درا (صلصلة الجرس) نشر أول مرة سنة ١٩٢٤ م . ونشر الشاعر قبل هذه السنة منظومتي الأسرار والرموز وبيام مشرق ، ولكنى بدأت بهذا الديوان بما يحوى شعر الصبا الذى نظمه قبل هاتين المنظومتين وغيرهما .

وقد عرفنا الشاعر بتاريخ القصائد في هذا الديوان اجمالا اذ قسمته هذه الاقسام :

القسم الأول الى سنة ١٩٠٥ . وفيه زهاء ستين قصيدة وقطعة ، نظمها منذ شرع ينظم الشعر الى أن سافر الى أوروبا سنة ١٩٠٥ م كما قدمت في سيرته .

وفي هذا القسم قصائد قومية ووطنية ، الى قصائد اسلامية وانسانيته

والقسم الثانى من ١٩٠٥ م - ١٩٠٨ . وهو ما أنشأه في أوروبا حينما ذهب اليها للدرس كما بينت في سيرته .

— ١٣٣ —

وهو زهاء ثلاثين قصيدة وقطعة . وهذا القسم جدير بالعناية بما يبين
عن شعور الشاعر أول عهده بالاقامة في أوروبا ، ورؤيته حضارتها في
مواطنها على اختلاف وجوهها ، وتعدد مظاهرها .

والقسم الثالث من ١٩٠٨م الى أن نشر الكتاب سنة ١٩٢٤ وفيه زهاء
ثمانين قصيدة وقطعة .

وآخر القصائد الطوال في هذا القسم قصيدتان عنوانهما : «خضر راه»
و « طلوع الاسلام » أنشد الأولى في احتفال « أنجمن حمايت اسلام »
سنة ١٩٢٢م والثانية في احتفال الجمعية نفسها سنة ١٩٢٣م . وقد وصف
في الأولى مصائب المسلمين . وفي الثانية آمالهم . نظر في الأولى الى
ما أصاب الدولة العثمانية في هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، وفي الثانية
الى انتصار الترك في حرب الاستقلال . ثم يذكر الحوادث صراحة ولكن
أشار اليها اشارات يدركها القارىء .

في هذا الديوان شعر لاقبال أنشأ بعضه في صباح وبعضه في سن
الحسين . فأى مراد نقارىء ، وأى مجال لباحث ، هذا الشعر الذى أنشأه
شاعر نابغ بين حدائمه وكهولته .

— ٣ و ٢ —

اسرار خودى ورموز بى خودى

(اسرار الذاتية ورموز نفي الذاتية)

(في اللغة الفارسية)

منظومتان على القافية المزدوجة . وهى تسمى المنوى في عرف شعراء
الفارسية ومن تبعهم من شعراء التركية والأردية .

— ١٣٤ —

وهما منظومتان طويلتان يبيّن فيهما الشاعر فلسفته • وقد عبّرتهما
مع القارئ في باب الفلسفة •

نشرت المنظومة الأولى سنة ١٩١٥ ، والثانية بعد ثلاث سنين •

— ٤ —

بيام مشرق « رسالة المشرق »

« في اللغة الفارسية »

• طبع هذا الديوان أول مرة سنة ١٩٢٣ •

وكتب الشاعر فوق عنوان الديوان : « والله المشرق والمغرب » وكتب
تحتّه :

« جواب ديوان الشاعر الألماني كوته »

وهو روضة من الشعر تختلف أزهارها وثوارها وضروب النبات فيها
وألوانه ، وصنوف الريحان فيها وروائحها • جمعت أشتات الزهر ، من
المشرق والمغرب •

وفيها الأقسام الآتية :

١ - شقائق الطور ، وهي ربايعات

٢ - الأفكار ، وهي احدى وخمسن قطعاً وقصيدة

٣ - الخمر الباقية ، وهي قصائد صوفية رمزية من الضرب الذي يسمى
في اصطلاح الأدب الفارسي غزلاً • وهو غير الاصطلاح العربي • والغزل
في اصطلاح شعراء الفرس أبيات قليلة لا يلتزم فيها الشاعر موضوعاً
واحداً • وعدد الغزليات في هذا القسم خمس وأربعون •

٤ - نقش الفرنج ، وهي أربع وعشرون قطعة وقصيدة يذكر فيها اقبال بعض شعراء أوروبا وفلاسفتها وينقد مذاهبهم وآراءهم فيقبل منها ويرد .

٥ - الدقائق ، وهي قطع صغيرة وأبيات مفردة ألحقها بالديوان . وقد ترجمت هذا الديوان الى العربية . وطبع في كراچی قبل ثلاث سنين .

— ٥ —

ربور عجم

(باللغة الفارسية)

نشره سنة ١٩٢٩ م . وهو من أجود شعره ، وأدقته معنى ، وأبعده مرمى .

صدره بكلمة الى القراء يقول فيها :

« تحجب عيني شعرة حينا ، وترى عيني العالمين حينا . ان وادي العشق سحيق وطويل ، ولكن طريق مائة سنة تطوى بأهة حينا . جيد ولا يهين أملك وعزمك . فرب سعادة تواتي على قارعة الطريق حينا » .

وهذا الديوان أربعة أقسام :

الأول فيه دعاء وست وستون قطعة أكثرها بدون عنوان

والثاني فيه خمس وسبعون قطعة تقل فيها العناوين أيضا .

والثالث حديقة السر الجديدة (كلشن راز جديد) وهو على طريقة (كلشن راز) الذي ألّفه الشيخ محمود الشبستري اجابة لأسئلة في التصوف أرسلها اليه بعض الصوفية . ولهذا سمى اقبال منظومته (كلشن راز جديد) .

وفيه يجيب اقبال تسعة أسئلة فيها دقائق فلسفية وصوفية .
السؤال الأول مثلا :

« أنا في حيرة من فكري . ما الشيء الذي يسمى فكرا ؟
أي فكر يدلنا على الطريق ؟ لماذا تكون الطاعة حينا ، والمعصية حينا . »
والسؤال التاسع :

من الذي انتهى الى سر الوحدة ؟ وما الذي اتهمت اليه معرفة العارف ؟
والقسم الرابع من هذا الديوان : « كتاب العبودية »

يتن فيه آثار العبودية في الحياة ، والفنون الجميلة ، على مذهبه المعروف .
هذه الأقسام كلها تعرف باسم زبور عجم . وقد جمعت في مجلد واحد
عليه هذا العنوان ، ولكن يتبين من العناوين الداخلة أن القسمين الأولين
هما زبور العجم ، وألحق بهما القسمان الأخيران بعنوانين منفصلين .

— ٦ —

جاويد نامه

(بالفارسية)

وديوان جاويد نامه طبع سنة ١٩٣٢ ، ومعناه الكتاب الخالد ، وفيه
تورية الى جاويد ابن الشاعر .

وهو منظومة مزدوجة القافية (مثنوية) في بحر واحد هو الرمل مثل
منظومتى الأسرار والرموز . وهى من أعظم شعره ، يحتاج قارئها الى زاد
كثير من المعرفة بالتصوف والفلسفة والتاريخ .

وجاويد نامه قصة سفر في الأفلاك كقصة دانتى الشاعر الايطالى ، فيها
زهاء ألقى بيت .

للقصة مقدمة فيها مناجاة وفصول أخرى ، الى أن تظهر روح جلال

الدين الرومى صاحب المثنوى المشهور • فيشرح أسرار المعراج • وهو دليل الشاعر فى هذه الرحلة • ثم يأتى زروان وهو روح الزمان والمكان فيحمل الشاعر ودليله جلال الدين الى العالم العلوى ، فيسيحان فى الأفلاك الستة ، القمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل • ثم فيما وراء الأفلاك • وتختتم المنظومة بأبيات كثيرة يخاطب فيها جاويد (ابنه) والجيل الجديد

وفى هذه الأسفار يلقى الشاعر كثيرا من الفلاسفة والصوفية والشعراء والملوك والساسة القدماء والمحدثين •

مثلا يقابل فى فلك القمر جمال الدين الأفغانى وسعيد حلیم باشا •

ويلقى فى فلك الزهرة فرعون وكنشتر والمهدى السودانى •

وفى فلك المشتري يلقى الحلاج والشاعر غالب وقرة العين الطاهرة •

وفى وراء الأفلاك يرى نظمه الفيلسوف الألمانى والسيد الهمدانى

ونادر شاه ، وأحمد شاه الأبدالى والشاعر الهندى برترى هرى •

وكانت هذه المنظومة أول ما فكرت فى ترجمته من دواوين اقبال ،

ولكن بدا لى من بعد أن أقدم عليها رسالة المشرق ثم ضرب الكلم ثم

الأسرار والرموز •

ولا أدرى متى يتيسر لى ترجمتها والله ولى التيسير •

— ٧ —

مسافر

((باللغة الفارسية))

وفى سنة ١٩٣٤ نشر مسافر (باللغة الفارسية) وهى منظومة مزدهجة

(مثنوية) سجّل فيها ما جال بفكره ، وجاش فى قلبه حينما سافر الى

(١) انظر وصية اقبال لاجد اصحابه بترائة هذه الابيات ص ٤٣ من هذا الكتاب •

أفغانستان بدعوة من الملك نادر شاه كما قدمت في الكلام على سيرته .
وخطب في هذه المنظومة الملك نادر شاه ، وقبائل الأفغان ، وهو كثير
الاعجاب بشجاعتهم وحرّيتهم .

وكذلك وقف على ضريح الملك بابر رأس الدولة التيمورية في الهند ،
وهو من أعظم ملوك العالم ، وعلى قبر الشاعر الصوفي الحكيم سنائي .
وهو طليعة شعراء التصوف العظام في اللغة الفارسية . وأدنى حق التاريخ
بوقفة على قبر السلطان محمود الغزنوي « يمين الدولة وأمين الملة ...
محمود بن سبكتكين » وزار أيضا قبر أحمد شاه بابا ، الملقّب دُرّاني
وختم المنظومة بأبيات خاطب بها الملك ظاهر شاه ابن نادر شاه . وقد
قتل نادر شاه رحمه الله بعد عودة الشاعر من أفغانستان فخلفه ابنه
ظاهر شاه .

— ٨ —

بال جبريل (جناح جبريل)

(باللغة الاردية)

نشره سنة ١٩٣٥ م . وفيه هذه الأقسام :

١ - احدى وستون قطعة تتناول أفكاره الشائعة في شعره في
صور شتى ، ورباعيات قليلة .

٢ - وقصائد نظمها في الأندلس حينما زارها كما بينت في سيرته .

وهي دعاء في مسجد قرطبة ، وقصيدة طويلة رائعة في وصف هذا
المسجد . وقصيدة عن المعتمد بن عباد في سجنه ، وأول نخلة غرسها عبد
الرحمن الداخل في الأندلس ، وقصيدة عن أسبانيا ، ثم دعاء طارق في المعركة

٣ - ومن عيون القصائد في القسم الثالث منظومة عنوانها لينين أمام الله . وهي في صورة قصة تمثيلية ، وأشعار نظمت في فلسطين ، ومنظومة عنوانها « الملائكة يودعون آدم خارجا من الجنة » ومحاورة طويلة بين جلال الدين الرومي ومريد هندي

وأبيات عنوانها على قبر نابليون ، وأخرى عنوانها مسولينى

٤ - وقطع أخرى كثيرة .

- ٩ -

« بس جه بايد كرد اى اقوام شرق »

« ما ينبغي ان نعمل يا امم الشرق »

(باللغة الفارسية)

منظومات مثنوية نشرها سنة ١٩٣٦م بعد أن استولت إيطاليا على الحبشة . ووضع عليها كلها عنوان المنظومة التي ذكر فيها حرب الحبشة وعصبة الأمم . وهو العنوان الذي صدرت به هذه الأسطر ولكن فيها عناوين متعددة في موضوعات مختلفة مثل

خطاب الشمس ، الحكمة الكليمية ، الحكمة الفرعونية ، لا الاله الا الله ، الفقر ، الرجل الحر ، في أسرار الشريعة ، كلمات الى الأمة العربية الخ .

وهذه المنظومات في جملتها حكمة بالغة ، وشعر بليغ نفثهما الشاعر حين حزنته أحوال المسلمين ، وحزبه ما رأى من فتون الحضارة الأوربية ، وضلالها وجور ساستها ، وقسوة قادتها ، وعدوانهم على الأمم الضعيفة .

ضرب كلیم

(باللغة الاردية)

تشرده سنة ١٩٣٧ • ولم ينشر في حياته ديوان بعده •
وهو ديوان مفصل على أبواب فيها نظرات في الاسلام ، والتربية ،
والمرأة ، والفنون الجميلة والسياسة وغيرها •
فاللغة فيها واضحة ظاهرة في أفكار معينة في موضوعات محددة •
ودعوة اقبال فيها واضحة •
وهو ثاني دواوين اقبال التي ترجمتها الى العربية • وقد كتبت له مقدمة
وافية فليرجع اليه من يشاء •

ارمغان حجاز « هدية الحجاز »

(باللغتين الفارسية والاردية)

هذا الديوان نشر بعد وفاة الشاعر • فيه آخر أفكاره ، وختام نظراته ،
ولكن فيه منظومة مهمة عنوانها مجلس شورى ابليلس كتب فوقها « سنة
١٩٣٦ » • ولا أدري لماذا لم تنشر من قبل في ضرب كلیم الذي نشر سنة
١٩٣٧ • لعل الشاعر لم يجدها ملائمة لهذا الديوان ، وهو آخر ما نشر في
حياته فجمعت . الى ما نظم بعد ضرب كلیم ، في هذا الديوان الآخر ، ديوان
أرمغان حجاز •

والقسم الفارسي من هذا الديوان ، وهو أكثره ، رباعيات مقسمة على
هذه العناوين :

الى الحق (الله تعالى) - الى الرسول - الى الأمة - الى العالم
الانساني - الى رفقاء الطريق •

وبين الرباعيات التي جعل عنوانها الى الأمة ، احدى عشرة رباعية
يخاطب بها شعراء العرب •

وفي كل قسم من هذه الأقسام عناوين أخرى تنقسم الرباعيات •
والقسم الأردني - أعظم شأنًا :

فيه مجلس شورى ابليس • وهو محاوره بين ابليس ومشيرويه ،
وشكوى بعض المشيرين من الديمقراطية يخافون أن تصلح العالم، وشكوى
آخر من الشيوعية . ومحاوره بين المشيرين ، وجواب ابليس بأنه لا يخشى
كل ما ذكره من المذاهب ، ولكن يخشى الاسلام ان تنبه المسلمون •
ففيه دون غيره القضاء على سلطان ابليس •

ومن عيون قصائد هذا القسم رثاء راس مسعود صديق الشاعر •
وهو رثاء بلغ فيه اقبال من الفلسفة والعاطفة الدرجات العلى •

وفي هذا القسم محاورات أخرى • وآخره رباعيات

الفصل الثاني

منهـب اقبال فى الفنون الجميلة

— ١ —

مقدمة

للفلاسفة والنقاد مذاهب وآراء فى الفنون الجميلة عامة وفى الشعر خاصة .

تختلف مذاهبهم وآراؤهم فى قَدْر الفنون وخطرها ، وتختلف فى مقاصد الفنون وغاياتها ، وتختلف فى مقاييس الحسن والقبح ، والكمال والنقص فيها .

وذلكم موضوع واسع مفصل لا يتسع المجال لبحثه كله أو بعضه . فحسبى التمثيل ببعض المذاهب وأصحابها تمهيدا للأبانة عن مذهب أقبال :

١ - الفن له مقاصد

يرى كثير من النقاد أن الفنون محاكاة الطبيعة . وأقدم من أثرت آراؤهم فى هذا ، أفلاطون وأرسطو . قالوا ان الفن محاكاة للطبيعة ولكنهما يختلفان فيما بعد هذا .

فأفلاطون يحقر الفنون بأنها محاكاة الطبيعة ، والطبيعة نفسها مظاهر خادعة أو ظلال لا حقائق لها . ومذهبه فى عالم الحقائق أو المثل وعالم المادة معروف . ويذم أفلاطون التمثيل لأنه يثير العواطف فيصعب كبحها . ويحقر الشعراء بأن خيالاتهم الكاذبة فى الله والناس سيئة الأثر فى عقول الشبان .

ويستحسن أرسطو الفنون بأنها محاكاة الانسان لأعمال الاله . انها تحاكي الطبيعة والاله هو المحرك الأول لها . ويحمد أرسطو الفن كذلك بما يثير العاطفة ويهذبها فتسهل السيطرة عليها .

ويؤخذ من هذه الكلمات أن الفيلسوفين يقومان الفنون بما تؤدي اليه من خير وشر . فهما ممن يتبعون الفن المقاصد الأخلاقية . وأكثر النقاد على هذا المذهب ، يقومون الفن بأثره في الانسان وصلته بالأخلاق .

ولأفلاطون خاصة عناية بأثر الفن في الأخلاق . يرى أن الفن في مادته وصورته ، ينبغي أن يقصد الى الأخلاق والمعرفة ، وأن سحر الفن ينبغي أن يستعان به على خلق المواطن الصالح .

ويرى أن تحظر الموسيقى الا الألحان التي تدعو الى الشجاعة والاقدام والألحان التي تنبه الإنسان ، وتبث في نفسه حب الاعتدال والنظام وتقديس الآلهة .

وأما السرور الذي يبعثه الفن فهو يعين العقل على هداية الانسان الى الصراط السوي .

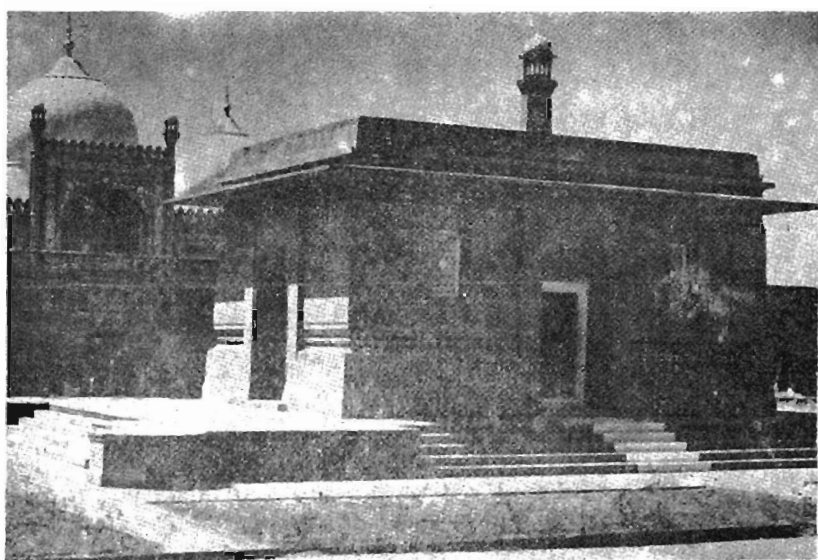
ويذم أفلاطون أصحاب الفنون المفسدين ويوصى بأن ينفوا من البلاد . كثير من النقاد ، بل أكثرهم ، يوجبون أن يكون للفن مقاصد ، ويقومونه بأثاره في حياة الانسان . وفي طليعة هؤلاء أفلاطون وفي مؤخرتهم برنارد شو .

منهم من يجعل غاية الفن السرور . ويؤثر عن أرسطو قوله ان الفن محاكاة لها مقصد نفساني واجتماعي . وهذا المقصد هو اللذة التي تنشأ من انطلاق الانفعال المكظوم .

ويؤثر عن سنت أغسطين في العصور الوسطى ، أن مقصد الفن خلق الجمال ، والجمال هو ما تسر الانسان رؤيته . وذهب هذا المذهب نقاد في كل عصر حتى عصرنا هذا . ومنهم العالم النفساني فرويد ، يرى أن الفن يريح فكر الفنان والرائي من التوتر ، بأرضاء الرغبات المكظومة . والفريق الثاني من القائلين بأن للفن مقاصد ، منهم من يقول أن مقصد



« جاويد منزل » منزل اقبال بمدينة لاهور



ضريح المرحوم محمد اقبال بمدينة لاهور
وترى خلفه قباب المسجد الجامع

الفن الحياة نفسها • ومنهم قائم ان الفنّان معلم • وأعلى مقاصده أن
يُنْبِض قلب الانسان • والقلب مركز الحياة • فالفن موصول بحياة
الانسان لا محالة ، موصول بكونه المادى والأخلاقى • ويقول آخر ان
الفن نقد الحياة • ويقول تليستوى ان مقصد الفن أن ينقل الى النفوس
أنبل العواطف وأعلاها •

ويذم الفن الفرنسى فى عصر الانحطاط لأنه يعتر عن عواطف الحكام
الأراذل •

ب - الفن للفن

فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، انتشرت دعوة الى تقويم
الفن بنفسه ، وانكار أن يكون للفنون مقاصد الا نفسها • وقال دعائها انما
يُعَالج الفن للفن^١ •

وكان من دعائها فى فرنسا فلوير وبُدلير^٢ ، وفى روسيا بَسْكين وفى
انجلترا اسكار وايلد ووولتر پيتر^٣ •

وكانت هذه الدعوة فى الحقيقة تطوراً لمذهب الطبيعيين^٤

ومعنى هذه الدعوة أن الفن يتّقصّد لجماله • وأما الحق والخير وما يتصل
بهما فليس لها صلة بالفن ، أو هى تابعة وليست المقصد الأسمى •••
ليس للفن غاية الا نفسه ، لا يتّقصّد الا اياه •

ليس للفن رسالة الا أن يثير فى النفس الاعجاب بالجمال • وانقصّد أمرا
آخر كالأخلاق والتعليم والمال والصيت ، وضع هذا القصد من قيمة الفن •

L'art Pour L'art (1)

Flaubert, Baudelaire (2)

Oscar Wilde, Walter Peter (3)

RomanTiers (4)

الفن مقصد لا وسيلة • ومن قصد في الفن الى غير الجمال فليس بفنان •
والشيء اذا صار نافعا لم يبق جميلا •

يقول أسكار وايلد :

أول شرط للابتكار أن يدرك النقاد أن عالم الفن وعالم الأخلاق
متباينان كل التباين • «

وكانت هذه الدعوة ، من الجهة الاجتماعية ، دعوة الى الفردية المطلقة
أنشأت فنونا مدمرة كل الفضائل التي عرفتها العصور الماضية •

ج - اصحاب العبارة

وذاعت قبل هذه الدعوة ، واستمرت بعدها ، دعوة أخرى تشبهها • هي
الدعوة الى تقويم الفن بصورته لا بمعناه ، الى تقويم الشعر مثلا بالألفاظ
والوزن والأسلوب لا بالموضوع والمعنى • فهي تميز بين القصة - مثلا -
ومعانيها وأشخاصها ، ومسارحها ، وعواطفها ، وبين اللغة والعبارة والسياق
والوزن •

وقد ثار من قبله الجدال بين أدبائنا أدباء العرب على البلاغة أهي في
الألفاظ أم في المعاني • وكتب في هذا عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل
الاعجاز وأسرار البلاغة وغيره •

وتذكرنا كلمات ابن خلدون في مقدمته بدعوى هؤلاء اللغظيين • يقول:

« فالمعاني موجودة عند كل واحد ، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء
ويرضى • فلا تحتاج الى صناعة • وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج
للصناعة كما قلناه • وهو بمثابة القوالب للمعاني • فكما أن الأواني التي
يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج
والخزف ، والماء واحد في نفسه ، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء
باختلاف جنسها لا باختلاف الماء ، كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال

تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه ، باعتبار تطبيقه على المقاصد •
والمعاني واحدة في نفسها • «

وقال المتأخرون من أصحاب هذا المذهب :

ليس الاعتبار بما تعبر عنه بل بما تعبر به ، ولا قيمة للمعنى بل للأداء
فربما تعرب عن قبيح أو جميل ، وعن حق أو باطل ، وعن صواب أو غلط
ولا يدخل شيء من هذه في تقويم الفن ، ولكن يقوّم الفن بالصورة التي
تبين بها عن هذه الأشياء •

قابل هؤلاء شعارَ « الفن للفن » بشعار « العبارة للعبارة »

وكانت هاتان النظريتان شائعتين حينما شرع اقبال ينظم الشعر •

ولكن الشاعر الفيلسوف القويّ لم يبال بهذه ولا تلك كما نرى
من بعد •

— ٢ —

مذهب اقبال في الفنون عامة

أبدأ هذا الفصل بكلمة عالية كتبها اقبال في مقدمته لديوان غالب
المصوّر :

« اذا نظرنا في تاريخ الثقافة الاسلامية فرأى أن الفن الاسلامى فيما
عدا العمارة (الموسيقى والتصوير بل الشعر) لمّا يولد ، أعنى الفن الذى
يقصد الى أن يتخلق الانسان بأخلاق الله • والذى يمدّ الانسان بألهام
لا ينقطع (أجر غير ممنون) ثم يحقق له خلافة الله في الأرض • »

ذلكم طموح اقبال في الفنون ، وأمله فيها • وذلكم ما اجتهد طول عمره
أن يحققه في شعره ، وفلسفته •

وفى ديوان زبور العجم منظومة طويلة بين فيها اقبال أثر الحرية والعبودية فى الفنون ، ووصل الفن بقلب الانسان وروحه ، بل وصله بالله تعالى ، اذ جعل الفنان الحق هو الذى يسمو بنفسه محاولا أن يتصف بصفات الله •

ويرى القارىء فى هذا الفصل شواهد من هذه المنظومة حين الكلام فى التصوير والموسيقى والعمارة •

يذهب اقبال فى الفنون مذهباً يلائم فلسفته التى أجملتها للقارىء فى هذا الكتاب :

قوام الحياة ، الذاتية • ومقصود الحياة تقوية الذاتية وتكميلها وشحذها واشغالها • وتقوى الذات من تخليق المقاصد والآمال • والذات بعشق آمالها ، والسير اليها ، واقتحام العقبات من أجلها ، واحتقار الأهوال فى سبيلها ، تذلل كل صعب ، وتيسر كل عسير ، وتدنى كل قصىّ وتسخر كل شىء •

وقد طبّق اقبال مذهب هذا فى كل شئون الحياة :

١ - الخير ما يقوى الذات وينميها ويكملها ، والشر ما يضعفها وينقصها • وفى القرآن الكريم : « قد أفلح من زكّأها وقد خاب من دسّأها » • وهذا قياس كل شئون الحياة وعقائد الانسان وأعماله :

الدين والفن والتدبير والخطب

والشعر والنثر والتحرير والكتب

كل " يحيط بمكنون يَظنّ به •

فى صدره يتوارى جوهر عجب ١

ان تحفظ «الذات» هذى فالحياة" بها

أو قصّرت فهنى عندى السحر والكذب

(١) كل هذه فيها سر تحفظ به هو حفظ الذات وتقويتها •

كَمْ أمة تحت هذه الشمس قد خزيت
اذ جانب الذاتَ فيها الدين والأدب

ب - والفنون تقوم بقوة النفس التي أنشأتها ، وقوة ايحاءها وقوة تأثيرها في الطبيعة والانسان . كل فن أنشأته نفس ضعيفة ، فكان له في الناس أثر ضعيف ، أو أنشأته نفس مفسدة شريرة ، فكان له في الناس افساد ، فهو فن لا قيمة له ؛ بل هو فن خاسر ، يضر ولا ينفع . ولا يقوم الفن بنفسه ، فأن مقصود الفن الحياة .

يقول الشاعر في المقدمة القصيرة التي كتبها سنة ١٩٢٨ م لديوان الشاعر غالب المصور ، الذي صوره عبد الرحمن چغتاي والمسمى مرقع چغتائي :

« أرى الفن خادما للحياة والشخصية . أبتت عن هذا الرأي سنة ١٩١٤م في ديواني « أسرار خودى » وأوضحته مرة أخرى بعد اثنتى عشرة سنة في القصيدة الاخيرة من ديوان « زبور المعجم » حيث حاولت تصوير روح الفنان الأمثل الذى يتجلّى العشق فيه توحيدا بين الجمال والقوة »

ويقول فى ضرب الكليم :

إذا أضنت الروحَ آلامُ رِقِّ ففتك عَبدٌ رهين سِجود
وان عرفتَ قدرَها كنتَ حقا على الانس والجن رب-الجنود

الخلود للأنسان وللفن بالقوة والحرية والتأثير فى الحياة ، التأثير القوى- الحسن ، الذى يقوى الحياة الضعيفة ويزيد الحياة القوية قوة :

أنت تحت الشمس تمضى كشرار
لستَ تدري ما مقامات الوجود
ليس فى فنك للذات بناء
ويحُ تصوير وشمر وشميد

والفن الذى لا يطبع على الحياة نفسه ، ولا يخلد على الدهر آثاره
ليس جديرا باسمه

مقصِدِ النسن فى الحياة لهيب
أبدى " فما وميض الشرار ؟
قطرَ نيسان ! ما اللالىء ان لم
تتلاطم بها قلوب البحار ؟
ما نسيم الصباح فى الشعر واللحن
إذا ما أذوى سنا الأزهار ؟
ليس الا الاعجازَ يحيى ، قفن "
ليس ضربُ الكليم فيه ، عوارى
لا فن بغير قوة ولا جمال بغير جلال :
وأرى الجمال جميعه فى أن ترى
فى سجدة للقوة الأفلاك "
ولنغمة " من دون نار نفخة
ما الحسن الا بالجلال يحاك

ج - ويقول اقبال فى مقدمة ديوان غالب :

لعل اىحاء " واحداً من نفس مُسفة ، تستطيع اغواء الناس بفنائها أو
تصويرها ، شر " على الأمة من جيش لآتيله أو جنكيز .
كما قال نبي - الاسلام فى امرىء القيس أعظم شعراء الجاهلية : « أشعر
الشعراء وقائدهم الى النار . »

(1) يقال ان مطر شهر نيسان تسقط قطراته فى الصدف فيخلق فيه الدر .
والشاعر يقول ان هذه اللالىء ان لم تجش بها قلوب البحار فلا قيمة لها ، فعمل
الفنان الذى لا يجيش له قلب العالم ليس بشيء .

وهو يعنى على الهنادك بعد فتهم عن الحياة ، واقرانه باختنوع
وتصويره الموت ، وقتله الروح . يقول فى ضرب الكلم :

تخيلهم جنازة كل عشق	وظلمة فكرهم للحى قبر
وموتهم به نقش المنايا ^١	وليس لفتهم بالعيش خبر .
ينيم الروح فى ايقاظ جسم	ودون المجد يسدل منه ستر
يسخر للأنوفة كل شئ	لهم قصص "وتصوير وشعر

د - والفن الصادق صورة من نفس الفنان ، بل هو مصور بدمه
وعصبه .

من حُرقة فى دم البانى مشيدة

حانات حافظ اوزونات بهزادا^٢

ما جوهر يتجلى دون مجهدة

من ومضة الفاس نارت دارفهادا^٣

و - وليس للمقلد فن . انه يبنى أصنامه من حطام أصنام قديمة .

تمس الكافر من أصنامه	من حطام لمناة واللات
هالك" صلى عليه فنه	فى ظلام اللحد يرنو للحياة

ه - محاكاة الطبيعة :

ويرى اقبال أن الفنان ينبغي ألا يحاكي الطبيعة ، بل ينبغي أن يطبع
نفسه عليها ، ويصور شعوره فيها . ويقول ان الانسان خلقت لا مقلد ،

(١) الموتى معبد الاوتان .

(٢) حافظ الشيرازى الشاعر الفارسى المروف وبهزاد مصور نابغ عاشى فى عصر
الصفويين . والزون معرض الدمى والاصنام

(٣) فرهاد مهندس فارسى يحكى اساطير الفرس انه شق فى جبل بيستون قنارة
نلبين ليعظم بحبيته شيرين كما اقترح عليه كبرى برويز، وله فى الادب الفارسى
سيت نالغ =

وصائد لا صيد ، وان أهرام مصر أعظم من الصحراء المحيطة به !

شادت الفطرة كُتباناً لها في سكون من يباب يتقَد
روءع الأفلاك فيه هرم" أى- كف-صورت هذا الأبد؟
من اسار الكون حرر صنعة صائد ذو الفن أم صيدا يُعد

وفي رسالة المشرق يقف اقبال الانسان أمام خالقه معددا ما فعل في الأرض :

خلقت الظلام فصغت السراج وطينا خلقت فصغت الكئوسا .
خلقت جبالا وييدا وروضا خلقت حدائقها والغروسا

أنا من حجار صنعت مرآيا

أنا من سموم صنعت دوايا

ويقول في ديوان آخر :

ذلك الفنان الذى يزيد على الطبيعة ، ويثقى لأعيننا أسراره ،

حوره من حور الجنة أجمل ، ومن ينكر أصنامه فهو كافر .^١

وأختم هذه الكلمة بقوله فى مقدمة ديوان غالب :

ان فى سيطرة المرئى- على غير المرئى- ، وابتغاء ما يُسمى فى العلم
ملاءمة الطبيعة ، اعترافا بسيادة الطبيعة على روح الانسان . وانما
القوة فى مقاومة تأثيرها لا فى خضوعنا لعملها . ان- مقاومة ما هو كائن
طلباً لما ينبغى أن يكون ، لهو صحة وحياة . وكل ما عدا هذا علة وموت .

(١) يعنى من لا يؤمن بما يخلق هذا الفنان من الصور كافر بالحقيقة .

ان حياة الله تعالى والانسان خلق مستمر . ان الفنّان الذى هو نعمة على الانسانية يتحدّى الطبيعة . وهو يتخلق بأخلاق الله ، ويشعر فى روحه باتصال الزمان والخلود . هو كما يقول فيتشه : « يرى كل الطبيعة كاملة فسيحة فيأضة ، لا كمن يرى الأشياء كلها أصغر ، وأهزل ، وأفرغ مما هي فى حقيقتها . الطبيعة كائنة وعملها تعويق سعينا الى ما ينبغى أن يكون . وهو ما يجب على الفنّان أن يجده فى قرارة نفسه . »

و — هذا مذهب اقبال فى الفنون عامة ، وأزيد على هذا الأجمال أمثلة من تطبيق فلسفته على بعض آحاد الفنون :

١ — المصور ينبغى أن ينشئ ، ويبين عن نفسه ولا يقتد . وقد قلّد مصورو الفرس والهند أوربا فأبطلوا فنتهم ، ومات خيالهم .

عمّ هذى البلاد موت الخيال ^١	قلد الغرب فنّ عجم و هند
يسلب الشرق بهجة الآزال ^٢	شفنتى الغم ، أن بهزاد عصرى
صنعة العصور العصور الخوالى	يا خيرا بنفسه فيه تمت
أرنا الذات فوق كل مجال	كم ترى من خليفة وثرىها

ويقول فى منظومته (كتاب العبودية) فى آخر ديوان زبور العجم ، عن التصوير والمصور :

رأيت تصويرا فاترا ، لا ترى فيه ابراهيم ولا آزر (يعنى لا نحت الاصنام ولا تحطيمها) .

ويذكر ضروبا من هذا التصوير الى أن يقول :

ريشة يقطر منها الموت ، ليس فيها الا خرافة الموت وسحره .

ويذكر ثقافة العصر قائلا : العلم الحاضر ساجد للكافرين ، يزيد الشك

(١) ديوان ضرب الكلم ص ٨٩

(٢) البهجة التى عرفت فى فنون الشرق من الازل .

ويمحو اليقين • ولا تعرف بغير يقين لذة التحقيق ، ولا بغير يقين تأتي قوة
التخليق • من لا يقين له مضطرب رعديد ، يتعذر عليه النقش الجديد •
عليل ، من « الذاتية » بعيد ، وهو من ذوق العامة في قيود • يستجدي
الطبيعة الجمال ، وله في الخيبة مجال •

لا تلتبس الحسن من غير نفسك يامغبون ، واطلب ما يجب أن يكون •
إذا أسلم المصور نفسه للطبيعة ، فقد أثبتها ونقى نفسه • وان ظن
الانسان نفسه خلاء ، انظفأ نور الله في ضميره انظفاء • والكليم اذا زال
عن نفسه تاه ، وأظلمت يده وعثر بعصاه • لا حياة الا بقوة الاعجاز •
وليس كل انسان يدرك هذا السر •

ويقول :

انما الفنان الذى يزيد على الفطرة ويتشى سرته لأعيننا • حوره من
حور الجنة أجمل ، ومنكرلاته ومنااته كافر • انه يخلق كائنات أخر ، وقلبه
بحياة أخرى يزخر • يموج بحره فيلقى النسا بدُرّره • وروحه جياشة
فياضة بفرره ، شأنها أن تملأ كل فراغ • فطرته الصافية عيار الحسن والقبح ،
وصنعتة مرآة الحسن والقيبح • هو ابراهيم وهو آذر ، تصنع يده الأصنام
وتحطمها • يهدم كل بناء قديم ، ويسلط مبرّده على الموجودات كلها الخ
٢ — والغناء حلال ان بعث في النفوس قوة وأملا وبهجة ، وحرام ان
بعث فيها ضعفا ويأسا وحزنا :

في صدور الأفلاك لحن خفى صاهر " حرته نجوم الوجود
قد أحلت (شريعة الذات) لحننا لم يزل في انتظار شاد مجيد ٢

(١) يحاول ان يسوى العالم بمبرده كما يبرد الصانع الحديد •
(٢) شريعة الذات التى بنا عليها اقبال فلسفته تحمل اللحن القوى الضمر في
الخليقة والذى لا يزال ينتظر من يخرجها للناس

ان سرت في اللحون دعوة موت
حرّم الناي عندنا والرباب

ولنّمة من دون نار نفخة ما الحّسن الا بالجلال يحاك

٣ - والموسيقى كذلك • ينبغي أن تبعث في النفس قوة ووجدا ،
وتسمو بها الى المعالي • فإن لم يكن لها هذا التأثير في النفس فالمعنى بارد
الدم ، وان لم يكن الزامر طاهر الضمير فأنفاسه في اللحن سموم •

ولا يزال اقبال يفتقد النغمات المحيية ، ويلتمسها فلا يجدها في الشرق
ولا الغرب :

دلّ على برّد دم المغنى	لحن" له الوجوه لا تثير
أنفاس زامر سموم لحن	ان كان لم يطهر به ضمير
بالشرق والغرب في رياض	من الشقيق شاقنى المسير
فما مررتُ بينها بمرج	شقّت به جيوبها الزهور ٢

وفي آخر ديوانه الذى سمّاه « زبور العجم » منظومة مثوية طويلة
سمّاهها بندكى نامه (كتاب العبودية) بيّن فيها جناية العبودية على
الحياة كلها ، وفضل الحرية عليها • وطبّق رأيه على الفنون في فصل من
المنظومة عنوانه « الفنون الجميلة عند العبيد »

فقال عن الموسيقى :

نّمة العبودية خالية من نار الحياة ، وألحانها مسفّنة مثلها • قلب منجد

(١) ضرب الكلم من ٩٥

(٢) زهور الشرق والغرب لم يهجهما الوجد فتعرق جيوبها كما يفعل من يغلّب
الطرب من فرح او حزن •

لا حرارة فيه ، حُرْم لذة الحاضر والمستقبل • يظهر في مزماره ستره ،
والموت الطويل في لحنه • انه يَمُلك ويتركك ، وينفرك من الحيساة
ويُملك •

احذر فما هذه الا نغمات الموت ، انها الغناء في لباس الصوت •

الى أن يقول :

لا بد من نعمة ربيبة الجنون ، هي حريق في شغاف القلب كمين •

ان في الألحان لتماما تسمع فيه بغير لفظ الكلام • والنغمة المضيئة هي
سراج الفطرة في كل ظلام ، معناها يخلق كل صورة • وكل ناغم بغيرها جثة
هامدة ، ونغماته شرار نار خامدة •

٤ - العمارة :

يتكلم عن العمارة في منظومته في آخر ديوان زبور المعجم التي ذكرتها
آنفا فيقول :

اصحب الماضين حينا ، وتأمل في صنعة الأحرار مليا • وانظر عمل
ايك وسورى^١

جلى الأحرار ضمائرهم ، وعرضوا للأعين أنفسهم • فنظموا حجرا
الى حجر ، فجمعوا الزمان فى آن •

ان رؤية هذه الصنعة تنضج نفسك ، وترمى بك فى عالم آخر • يهديك
النقش الى النقاش ، فاذا ستره فى الصنعة فاش •

ويخاطب الشاعر نفسه :

(١) قطب الدين ابيك بنى مسجد قوة الاسلام فى دهلى ، وشيرشاه سورى احد ملوك الهند

أنا من نفسى فى حجاب ، لم أرد فترات الحياة العباب • كل أحكام من
اليقين يبين ، وأين متى أحكام اليقين • ليس فى من « لا إله الا الله »
قوة فلست أهلا للسجود على هذه السدة •

ويدخل الشاعر بهذا القول الى ذكر « تاج محل » معجزة البناء الخالدة
فيقول :

« سرح فى هذا الجوهر النظر ، انظر التاج فى ضوء القمر • صوروا من
الماء الجارى مرمره ، فجمعوا الأبد هناك فى لمحة •

لقد صرح عشق الرجال بالأسرار ، فثقّب بأهداب العين الأحجار •
تجلّى عشق الرجال فى صورته ، فأثار نعمات من آجرته وحجره • وعشق
الرجال عيار الجمال ، يشق أستار الحسن ثم يصونه من الابتدال • جازت
السموات همته ، وفاتت عالم الكيف والكم عزمته • عى البيان عما شعرا
فأبدى البناء من ضميره ماسترا •

العشق تصقل العقل يداه ، ويخلق من الحجر مرآة • »

وبختم الفصل بقوله :

الحسن بغير قهر سحر ، وهو مع القهر نبوة • وقد مزج العشق الاثنين
فى الأعمال ، وأثار عالما من الجلال فى عالم من الجمال •

الفصل الثالث

مذهب اقبال في الشعر خاصة

ذكرت آتفا مذهب اقبال في الفنون عامة ؛ أن لها مقصدا في حياة الناس ، وأن هذا المقصد ينبغي أن يكون تقوية النفس ، وأن الفن تعبير عن نفس قوية لا تحاكي الطبيعة ، ولا تقلد غيرها ، ولكنها تصوغ الفن من دمها ونبضها وتؤثر به في الحياة .

وفي هذا الفصل أخصّ بالبيان مذهب اقبال في الشعر ، وهو فرع من رأيه في الفنون عامة . واقبال كان شاعرا نابغة . فكان ، لا جرم أكثر عناية بالشعر ، ووجب على من يبيّن مذهب اقبال في الفنون الجميلة أن يخص الشعر بالبيان بعد الكلام في الفنون عامة .

— ١ —

الشعر والحقيقة

الحقيقة ان لم تخالطها العاطفة فهي حكمة . وان قبست من نار القلوب فهي شعر .

يقول اقبال في رسالة المشرق :

كل حق دون وجد حكمة وهو شعر ان يثب نار القلوب

وهذا حق . كل حقائق العالم موضوع للشعر ان خالطتها العاطفة ، وبنوها الخيال .

ولا يتسع المجال لتفصيل القول في هذا . وحسبى أن أقول ان اقبالا

يرى أن حقائق العالم كلها تدخل في الشعر ان قبست من نيران القلوب •
وقد عالج الفلسفة العالية ، وحقائق الحياة في دواوينه التسعة التي عدتها في
الفصل الأول من هذا الباب •

— ٢ —

الشعر جمال وجلال

ولا غنى للشعر عن أن يكون جمالا وجلالا ، وأن يكون بانيا أو
هادما ، وأن يكون هديا الى كمال أو ثورة على نقص •

لم أدر سرّ الشعر الاثنته سيرّ الشعوب تبينها تفصيلا:
الشعر فيه من الحياة رسالة أبدية لا تقبل التبديلا
ان كان من جبريل فيه نعمة أو كان فيه صور اسرافيل

— ٣ —

الشعر حياة وأمل

والصمت خير من شعر لا يبعث في النفس قوة الحياة ، ونضرة الأمل
ولا يحدو الناس الى المعالي ، ويجب اليهم الحياة العزيزة الكريمة •

كم بشعر العجم من سحر ولكن
منه سيفُ الذات ذو حدٍ كليل
صمتٌ طير الصبح أولى من غناء
ان سرى باللحن في الروض ذبول
ليس ضرباً ما يشق الطود ان لم
ترَ منه عرش پرويز يميل^١

(١) اشارة الى قصة فرهاد الذي شق طريقا في الجبل كما اقترح كسرى برويز ثم لم يظفر
من برويز بمزاده - ضرب الكليم ص ٩٢

لا يعجب الشاعر بشعر العجم على ما فيه من سحر وفن لما يرى فيه
من الترف ، والهمود ، والاشفاق من مشقات الحياة ، والتشاؤم .

يقول في ضرب كليم ٢

في غابة الشرق ناي" يتغنى نفا
ياشاعر الشرق هل في صدرك النفس ؟
من كان في نفسه من رِقته خور
فقل له من لحون العجم يحترس
اناؤها من زجاج كان أو خزف
اطبّع بخمرك سيفاً لمعه قبس
لم تبصر الشمس من دنيا يُخال بها
مجد بغير الجلال المرّ يئنس
طور جديد وبرق كل آونة
لاقرّب الله للعشاق ما التمسوا

هذه الأبيات عنوانها الشاعر . فهو يريد شاعر الشرق مجاهدا لا يركن
الى الترف ، ويريد أن تكون مغانيه لامعة قاطعة كالسيف مهما تكن ألفاظها
وصورها .

ويريد أن يكون الشاعر داعيا الى المجد ، والمجد لا ينال بغير الجلال
المرّ ، والشعر عدّة هذا الجلال .

وكذلك يريد الشاعر سائرا بآماله الى غير نهاية ، ففي هذا السير
توحى اليه المعاني السريّة ، ويرى كل حين للوحى طورا وبرقا . وخير
للشاعر ألا يظفر بمطلوبه حتى لا يقف به المسير :

طور جديد وبرق كل آونة
لاقرّب الله للعشاق ما التمسوا

ولهذا أيضا يدعو اقبال شعراء المسلمين الى أن يَوتلوا وجوههم شطر
البيداء حيث السعة والحرارة والريح العاصف ، والى أن ينسبوا بسلمى
العرب في باديتها •

وسياتى ذكر هذا •

فاذا نفخ الشعر في النفوس الحياة ، وبعث الانسان فهو وراثه النبوة

ان يكن في الشعر بعث الآدمى - كان في الشاعر ميراث النبى -

— ٤ —

أثر الشاعر في أمته

يبين اقبال عن آرائه في الشعر والشاعر في مواضع كثيرة من شعره
أوفاهما وأبينها ما كتبه في فصل من أسرار خودى عنوانه « اصلاح الآداب
الاسلامية » • يبين في هذا الفصل مكانة الشاعر القوى وأثره في الأمة
حياة وأملا وهداية وعملا • كما يبين أثر الشاعر الضعيف في الأمة ، ترفا
وخمودا ويأسا وهلاكًا •

وهذه ترجمة أبيات من هذا الفصل فيها وفاء ببيان مذهب الشاعر
الفيلسوف محمد اقبال في الشعر والشعراء :

طوره مَجلى الجمال الباهر	جلوة الحسن ضميرُ الشاعر
زادت الفطرة سحرا رقيقته	مكّدت الحُسن بحُسن نظرته
ضاء خدءُ الورد من تلوينه	علمُ الليل من تلحينه
ألف كون محدث فيه استتر	مضمّر في خلقه بحر وبرّ
كم لحون ، وبكى لهم يسمع	كم شقيق عنده لم يطلع
يخلق الحسن وفي القبح عيبى	فكره للبدر والنجم نجى

تَنْضُرُ الأكوان من ماء بكاه
وعلت في ركبنا نفمته
وحدا الناي^١ بنا في الفلّس^١
فسرت في زهرها نفحته

خَضْر" ، في ليله ماء الحياة
لظفت في سيرنا حيلته
فمضى الركبان اثر الجرس
وسرت في روضنا نسمة

هذا الشاعر الحى- الذى يبعث في الأمة الحياة . وشاعر آخر هو حادى
الهلاك ، ونذير الموت :

صد- عن نهج المعالى شاعره
تقرّح الأكبَاد من نفثاته
ويعاف الشدو^١ ، منه البلبل
ويرد^٢ الصقر مثل المحجل^٢
كبنات البحر يقتاد الغوى^٣
ولقاع البحر يهوى بالسفين^٣
ويثرى الموت حياة كلمه
ويثرى الخير قبيح المنظر
آل لون وشذى بستانه^٤
بحره ما فيه الا الصدف
أطفأت أنفاسه وقدتنا

ويل فوم لهلاك طائره
تقبح الأشكال في مرآته
تذبل الأزهار منه قبّل
يسلب السرو^١ جميل الميّل
هو حوت نصفه كالأدمى
يسحّر الركبان باللحن المبين
يسلب القلب ثباتا نغمه
يئلبس النفع ثياب الضرر
سيل برق ما حوى نيسانه
سادر^٢ بالحق لا يعترف
نومت ألقائه يقظتنا

الى أن يقول :

لاح كالنای هزبلا صائحا شاكى الأقدار جهلا، نائحا الخ

ثم يقول بعد وصف الشاعر الفسّل الخائر اليأس ، مبيّنا الطريقة المثلى
في الشعر :

(١) جرس القافلة ونای الحادى
(٢) يصف الصقر الجارح فاذا هو كالحجلة .
(٣) في الاساطير ان بنات البحر تفعل هذا بالسفن .
(٤) الال السراب . أى بستانه سراب من اللون والرائحة .

صير في القول! ان تبغ النجاة
 نير الفكر يقود العملا
 من بصر صالح في الأدب!
 وسليمة العرب يا صاح اعشق
 من رياض المعجم جمعت الزهر
 فاشربن حر الصحارى يا صديق
 أسلمن رأسك يوما صدرها
 كم وطئت الورد في طول المدى
 فعلى رمل الصحارى المضرم
 صاح فيم النوح مثل البلبل؟
 ابن عثا حيث لا تبني الأنوق
 لتري أهلا لا عصار الحياة
 فاجعلن معياره نار الحياة
 مثل برق قبل رعد جلجلا
 ارجعن يا صاح شطر العرب
 أطلعن صبح الحجاز المشرق
 وبروض الهند سرتحت البصر
 اشربن من تمرها الراح العتيق
 وألقن في حردها صرصرها
 غاسلا كالورد خدًا بالندى
 أقدم من يوما وغص في زمزم
 والام العيش بين الظلل؟
 تلتقى فيه رعود وبروق
 وتذيب النفس في نار الحياة

وفي فاتحة أسرار خودي يصف نفسه ويقول انه جديد غريب في هذا العالم ، الى أن يقول واصفا مذهبه في الاعراب عما في النفس في صراحة وجرأة وقدرة . وهو في الحق يصف المثل الأعلى للشاعر كما يتصوره :

أنا في يأس من الصحب القديم
 بحر صحبى قطرة لا تزخر
 من وجود غير هذا لى غناء
 كم تجلئ شاعر بعد الحمام
 وجهه من ظلمة الموت سفر
 كم بهذا السهب مرت قافلة
 غير أنى عاشق دينى النشوح
 أنا لحن كل عنه الوتر
 مشعل طورى ليغشاه كليم
 قطرتى كاليم فيه صرصر
 ولركب غير هذا لى حذاء
 يوقظ الأعين فينا وينام
 ونما من قبره مثل الزهر
 مثل سير النوق رهوا سابلة
 ثورة المحشر منى فى الصياح
 لا أبالى أن عودى يكسر .

(1) يعنى ان كثيرا من الشعراء لم يقدمهم الناس قدمهم ، ويهدتوا بهديهم الا بعد الموت . وكذلك هو . وقد صدقت قوله مكانته اليوم بين مسلمى باكستان والهند

ويقول في رسالة المشرق . وهو اعراب عن مذهبه في الشعر والشاعر :
 تغنى طائر سحرا طويلا فأبدع شذوه لحنا وقيلا :
 أبين عمّا بصدرك لا تدعه غناء أو أيننا أو عويلا
 ويقول :

أنا في الروض منفرد غريب على غصنى أنوح مع الرياح
 فدعنى بارقيق القلب وابعد فأن دمي ليقطر في نواحي
 هذا مذهب اقبال في الشعر ، ألقته من أبيات في دواوينه وكلمات
 مأثورة عنه . وهي جملة وراءها تفصيل ، وعنوان يتلوه ان شاء الله بيان وفيره .

الفصل الرابع

شعر اقبال

معانيه وصوره وأساليبه

— ١ —

وصف اقبال نفسه

يقول الشاعر الملمه في فاتحة ديوان أسرار خودى :

من وجود غير هذا لى غناء	ولركب غير هذا لى حذاء ١
أنا لحن كلّ عنه الوتر	لا أبالى أن عودى يكسر
لا تمى لجئى هذى الأنهر	لا تمى موجى الا أبحر
كم بروق نائمات فى الجنان	ضاقت البيد لديها والقنان
ان تكن صحراء فاطلب لجتى	أو تكن سيناء فاقبس شعلتى
قد وهبت الورد من عين الحياة	وحببت السر من عين الحياة ٢
أشعل الذرات من لحنى التهاب	فهى نور طائر يدعى الحباب ٣
مانثا ذاك السر غيرى فى البشر	لم يثقب ناطم مثلى الدرر

أقبلن ان تبغ عيش الخالدين

أقبلن ان تبغ ملك العالمين

(١) هذه ابیات مختارة وليست متوالية فى الديوان .

(٢) الناقية مردوفة وعين الاولى عين الماء والثانية بمعنى نفس الشيء .

(٣) الحباب ذبابة ترى بالليل مضيئة . وهى عند اقبال مثال الحياة القوية التى تضىء

لنفسها . يكثر ذكرها فى شعره . وهنا يقول ان نار الحانى احييت اللذة فصارت الطائر الذى

يسمى حبابا .

ويكثر اقبال في شعره أنه عالم بالسر ، وأنه كشفت له أسرار الحياة •
ولا ريب أنه شاعر ملهم ، شعر في قرارة نفسه أنه أدرك من أسرار
الحياة ما لم يدرك غيره ، وأنه يُبلغ هذا العالم رسالة يؤمن بها اليوم أو
غدا ، وأنه شاعر الغد وصوت المستقبل •

وكثيرا ما يقول : ان- في نفسه معاني لا تعيها الكلمات ، وفي قلبه
أسرارا ليس لها نجي- . وقد سأل الله أن يهبه نجيتا يعى عنه أو يسلب قلبه
النار التي تضطرم فيه •

وفي رسالة المشرق هذه الأبيات بعنوان « الوردة الأولى »

وردة ظهرت في الروضة قبل غيرها ، فهي تنظر فلا تجد الا نفسها ،
فتلمس نجيتا في صورتها التي يمثلها الماء • وتقول الوردة ان على صفحاتها
رسالة خَطَّها القلم الذي صور هذه الحياة ، وأن قلبها في الماضي ، وعينها
الى اليوم ، وأملها في الغد • فهي صلة الأزمنة الثلاثة •

واليك الأبيات :

لا أرى في الرياض لى من قريع	أنا أولى زهور هذا الربيع
أبتغى في الغدير صورة نفسى	لأرى وجه مؤنس ، لى سميع
في سطورى رسالة من يراع	خط- سطر الحياة في ترصيع
أمس قلبى، وعبرة اليوم عيني	وغدى مُنيتى وكلُّ بديع

وأنا النجم خلقتة الثريتا

نسج الطين مُتوب ورد عليا

هكذا تحدث اقبال عن نفسه فهل وفي شعر اقبال بهذه الدعوى ؟ هل

حقق هذا الأمل ؟

لا ريب أن اقبالاً أمد-الانسانَ عقله وقلبه ويده ، بزاد من الفكر والعشق والأمل والعمل ، أفاضه شعرا مختلفة طرائقه رائعة صورته في تسعة دواوين •

— ٢ —

موضوع شعر اقبال

موضوع شعره الحياة والعالم ، يبيّن فيهما الحقائق ، ويكشف الأسرار ، ويوقظ الانسان ويدعوه الى قدر نفسه ، وتقوية ذاته ، ويناديه أنك أعلى الخليقة وأن العالم كله مسخّر لك • وامامه في هذه الدعوة القرآن الكريم كما في الآية :

« ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »

والآية : « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه »
وآيات أخرى كثيرة •
يقول مخاطباً الانسان :

ولك الوقت والتصرف فيه ليس يا غر- ! للنجوم غناء

أين منك الأفلاك ؟ انك حرٌّ وهى قهْرٌ ذهابها والاياب

والجهاد في هذا العالم لتذليل الطبيعة وتسخيرها هو قوة الذات ورقبتها . والانسان الحر- أو المؤمن ، يسخر هذه الكائنات حتى لا تكون أمامه شيئاً ، والانسان العبد ، أو غير المؤمن ، يضل في الكائنات ويذل لها • ففرق ما بين المؤمن والكافر في رأي اقبال أن المؤمن يسخر هذا العالم ويقتحم عقباته الى مقاصده العليا ، لا يحار في الكائنات ولا يضل ، ولا يعبأ بتسخيرها ولا يذل •

انما الكافر حيران له الأفاق تيه
وأرى المؤمن كونا تاهت الأفاق فيه

وفرق آخر أن المؤمن أو الحرّ ، خلاق مبتكر دائم الأمل والعمل
والكافر أو العبد عاجز لا يتكرر ولا يجدد

يقول في أسرار خودى :

فكرة العبد حصول الحاصل ليس في أفكاره من طائل
في مقام من همود راكد نوحه ليلا وصحبا واحد
ومن الحر جديد الحلقة كل حين وجديد النعمة

وفرق آخر أن العبد يعتلّ بالقضاء والقدر ، ويرتبك في خيوط الزمان
أو ينسج شبكة الزمان على نفسه ، والحرّ مشير على القضاء والقدر
وناسج نفسه على الزمان .

نكتة كالدر خذها رائقة بين حرّ ورقيق فارقه^١
حار عبد في فيافي الزمن حيرّ الأفاق قلب المؤمن
ينسج العبد عليه كفنا من صباح ومساء ، مدعنا
وترى الحرّ على الترب اعتلى ناسحا همته فوق الملا
قيّد العبد صباح" ومساء وثوى في فمه لفظ «القضاء»
لكن الحرّ مشير" للقدر صورت كفاه أحداث الدهر

ويرى اقبال أن المؤمن معيار الخير والشر في الدنيا والآخرة وأنه يبلغ
من المكائنة أن يسأله ربّه ماذا يرضيك ؟ .

يقول في ضرب الكلميم في الأبيات التي أولها :

(١) أسرار خودى .

ان للمؤمن العظيم الشأن كل حين جديد شان وآن :
 « لست تدري بسرته فتراه قارئاً وهو صورة القرآن
 فيه عزم على القضاء دليل وهو في العالمين كالميزان
 ليله والنهار لحن حياة في انسجام كسورة الرحمن »

الانسان في هذا العالم مدرك مفكر حر • والخلائق مسخرة مجبرة ،
 يعلى اقبال قدر الانسان ، ويبين فداحة الأعباء التي يحتملها ، ويمدّه من
 القوة والأمل والعزم بما يؤهله لحمل هذه الأعباء الجسام •

انظر الى قصيدته التي عنوانها « وحدة » في ديوان رسالة المشرق لترى
 الانسان يأتي الى البحار مسائلاً والى الجبال ويرتقى الى البدر ، ثم ينتهي
 الى الله ، يسأل أهو وحده صاحب القلب في هذه الخليقة يحمل الأمانة التي
 أشفقت منها السموات والأرض والجبال ؟

فلا يرد البحر والجبل والقمر أسئلته ، ولا يجيبه الله تعالى الا
 بالابتسام • ولعله ابتسام الاعجاب بهذا المخلوق الكبير •
 وستأتي القصيدة في التمثيل لشعر اقبال •

هذه أصول فلسفة اقبال ، وعمدة آرائه ، فالانسان ذاته وقوته وقدرته
 وحرية وجهاده ، والجماعة التي تتألف من هذا الانسان ، خصائصها
 ومزاياها ، ومسيرها وغايتها ، وقوتها التي لا تحد ، وعزمها الذي لا يبعد
 عليه أمد ، كل هؤلاء موضوع شعر اقبال • صورّه فأحسن تصويره ،
 وبثه في أفكار شتى وصور مختلفة ، جهد الفكر الفيّاض ، والقلب
 الحياش والشعر المتدفق ، والبيان الساحر •

والعرب الأولون الذي انتشروا بالاسلام في أقطار الأرض يدعون الى
 توحيد الله وتوحيد الأمم ، لا تصدّ عزمهم الصعاب والأهوال ، ولا تفرّق

همتهم بين دان وقاص ، ولا يبالون الموت في سبيل الحق — هؤلاء العرب هم مسئّل اقبال في هذه الحياة ، وتصديق فلسفته فيها .

ذكرهم في شعره تصريحا وتلميحا ، ووقّاهم حقّهم من الاعجاب ، وأبان عن نواحي العظمة في مآثرهم . وأبان عن حبه واعجابه واعظامه في وصف آثارهم كما في القصيدة الخالدة التي وصف فيها مسجد قرطبة .

— ٣ —

ضروب هذا الشعر

لهذا الشعر الفياض الذي يسع السموات والأرض ، ويعلو الى ما وراءها ، طرائق مختلفة في سياق الموضوع ، وفي أشكام المنظومات والأوزان والقوافي .

أ — فيه القصص . وأعظم قصصه (جاويد نامه) ، التي قصّ فيها رحلته في الأفلاك ، كما ذكرت في الفصل الأول من هذا الباب . وقصص أخرى قصيرة متفرقة في دواوينه مثل (مجلس شورى ابليس) في ديوان أرمغان حجاز ، و (لينين في حضرة الخالق) في ديوان بال جبريل و (خروج آدم من الجنة) في الديوان نفسه . والقصص في شعر اقبال ، كالقصص في شعر جلال الدين الرومي ، يتوسل به الى تبين مقاصد الشعر ، لا يعنى فيه الشاعر بأكثر من الحوار بين من يتكلم على ألسنتهم من أناسيّ القصة .

ب — ومن شعر اقبال الشعر التعليمي ، يقصد فيه الى تعليم فلسفته ومذهبه في نظام شعري تمتزج فيه الفلسفة والشعر . وأبّين هذا

الشعر المنظومتان اللتان عبّرتهما عبرا في الكلام على فلسفة
اقبال . ومثلها منظومات قصيرة في دواوينه الأخرى ، منها
وصاياه الى ابنه جاويد وناشئة هذا الجيل .

ج - والوصف في شعر هذا الشاعر العظيم كثير ، فيه وصف الطبيعة
ووصف الأبنية كما وصف جامع قرطبة ، وتاج محل . والوصف
المعنوي يغلب فيه على الوصف الحسى ، يشرع في وصف الصورة
الحسية فتنتفتح له عن معان عالية من الفلسفة والشعر يفيض فيها .
لا تشغل الصور الحسية هذا الشاعر الروحي كثيرا فأنا تثير
في نفسه معانى ينطلق فيها ، وانما هى باب يجوزه الى عالم غير
محدود .

د - وفي شعر اقبال ضروب الشعر الأخرى التى تسمى فى اصطلاح
الأدباء الشعر الغنائى أو الوجدانى . وهى فنون شتى فى معانيها
ومنها الضرب الذى كلف به شعراء الفرس ومن تبعهم وسموه
غزلا . والغزل أبيات قليلة ، بين سبعة واثنى عشر فى الغالب ، ينظم
فيها الشاعر خواطر يجمعها موضوع أو لا يجمعها . وهذه الفنون
موصولة فى معانيها بالأقسام الأخرى التى ذكرتها آنفا ؛ وان فرق
بينها هذا التقسيم الصورى . ومن ذا يستطيع تقسيم أمواج
البحر بخطوط وحدود .

— ٤ —

الأوزان والقوافى

وأما أوزان شعره فهى الأوزان الفارسية كلها . هى أوزان أخذها شعراء
الفرس عن الأوزان العربية . وتصرفوا فيها وزادوا عليها . وليس هذا

موضع الكلام في أوزان الشعر الفارسي واتصالها بالأوزان العربية
وسينر شعراء التركية والأردية عليها ، واحتذائهم إياها .

والقوافي هي القوافي الفارسية كذلك . ويكثر فيها الرّدف وهو أن
تكرر كلمة في آخر كل بيت وتلغى في التقفية . ويلتزم روى قبلها . وقد
قدّمت أمثلة منها في بعض ما ترجمت من شعر اقبال .

وأما أنواع القوافي ففيها الرباعيات وهي كثيرة في دواوين الشاعر .
ومنها الموشحات على النظام المعروف في الشعر العربي . والشاعر يفتن
في القوافي الموشحة ، ويصرف الوزن معها بالطول والقصر . وسيجد
القارئ مثالا منها من بعد .

ومن شعر اقبال المثنويات . وهي منظومات على القافية المزدوجة وعلى
هذه القافية نظم دواوين الأسرار والرموز وجاويد نامه . وكذلك نظم فيها
كثيرا من منظوماته في الدواوين الأخرى .

ومن منظومات اقبال ضروب أخرى على التقفية المعروفة في القصائد
العربية .

هذه نظرة عاجلة في ضروب شعر اقبال من حيث السياق والوزن
والقافية .

ولم أرد فيها التفصيل ، لأنني أكتب للقارئ العربي . وليس أمامه شعر
الشاعر في لغته فأطيل له البيان في ضروب الشعر موضوعه وأشكاله
وأوزانه وقوافيه .

— ٥ —

اللغة والأسلوب

وهذا موضوع لا يعنى القارئ العربي كثيرا . فهو لا يقرأ شعر اقبال في

لغته الأردية والفارسية ولكن يقرأ ترجمة عربية لبعض دواوينه
والترجمة ان حفظت المعنى والصورة لا تحفظ اللغة والأسلوب

وحسبى فى التعريف بلغة اقبال وعبارته وأسلوبه هذه الكلمات :

كتب اقبال باللغتين الأردية والفارسية . ولغته الأولى البنجابية ليست
لغة علم وأدب ، والمكتوب فيها قليل من أدب العامة . فاللغة الأردية هى
لغته ولغة الأدباء والمتأديين من مسلمى الهند .

ولغته وأسلوبه فيما أنشأ بالأردية ، يبلغان فى الأصالة والصحة والقوة
ما بلغه أكبر شعراء الأردية منذ نشأ الشعر فى هذه اللغة الى أن نبغ اقبال .

والحكم فى لغة الشعر وعبارته وأسلوبه يترد الى ذوق أهل اللغة . ولا
يعتد فيه برأى دارسى اللغة من غير أهلها وان بلغوا الغاية فى علمها وفقهها،
ودربوا على أساليبها فى شعرها وثرها . وأدباء الأردية يرون أن شعر
اقبال فى جملته يبلغ الذروة من هذه اللغة . ويسامى شعر أعظم شعرائها ،
ثم يفوتهم بمعانيه التى لا تحدّ وفلسفته التى استولى فيها على الأمد .



وأما منظومات اقبال الفارسية فقد أخذ عليها أدباء الفرس ما أخذ أجملها
ثم أذكر رأى فيها :

عُرفت اللغة الفارسية فى الهند منذ فتح السلطان محمود الغزنوى
شمالى الهند فى القرن الرابع الهجرى ، وبلغت مكانة عليّة أيام المغول
فكانت لغة الدولة ولغة العلم والأدب . وقد اجتمع حول جلال الدين أكبر
أحد ملوكهم زهاء خمسين شاعرا كلهم ينظم بالفارسية ، منهم من نبغ فى
الهند ومنهم من وفد إليها من ايران .

وقد ضعف أمرها بعد اضمحلال الدولة المغولية ولكنها بقيت حتى
عصرنا يعرفها المثقفون ، وينظم بها بعض الشعراء ويكتب بها بعض الكتاب .
وأعظم من نظم فيها في هذا العصر محمد اقبال .

وقد أنشأ فيها ستة من دواوينه التسعة ، كما بينت قبلا .

وأخذ بعض أدباء الفرس على الشاعر التابع هذه المآخذ :

أ — أخذ عليه أن لفته وأسلوبه ليسا مطابقين للغة الشعر الفارسي
العصري وأسلوبه .

ب — وأنه يستعمل أحيانا عبارات تخالف الفصح المأنوس في الفارسية

ج — وأن له تراكيب لم تؤثر في الأدب الفارسي من قبل .

وقد أجاب المعترضين ملك الشعراء بهار رحمه الله أحد شعراء الفرس ،
ومجتبى المينوى الذى ألف كتابا عن الشاعر اسمه « اقبال اللاهورى »
وقد عدد المؤلف في هذا الكتاب ما أخذ على اقبال وأجاب عليه .

ويبدو أن لهذا الاعتراض سببين الأول أن اقبالا لم ينشأ في بيئة
فارسية . فالفارسية ليست لفته ، ولكن اكتسبها بالدرس ، وطول النظر
في دواوين شعرائها . فاستوى عنده ما استعمله شعراء الفرس القدماء
وما استعمله المعاصرون منهم . فرأى بعض النقاد في بعض شعره مخالفة
للغة العصر وأسلوبه .

والثانى أن اللغة الفارسية استوطنت الهند قرونا ، ونشأ فيها أدباء
ونبع شعراء لهم بيئتهم وأحوالهم . وهى تخالف بيئة شعراء ايران وأحوالهم
فنشأت في الهند لغة أدبية تخالف مخالفة ما لغة الأدب في ايران .
فأما السبب الأول فلا حرج على اقبال أن يأخذ من كبار شعراء الفارسية
في كل العصور . ويسعه ما وسع هؤلاء الشعراء . ولا يضيره ألا يكون

شعره مسائرا الشعر الفارسي المعصرى كل المسائرة في لفظه وتركيبه
وسياقه .

وأما السبب الثانى ففيه اعتراض باصطلاح بيئته على اصطلاح بيئته
أخرى . وقد يما قال علماؤنا : لا مشاحنة في الاصطلاح .

وأما أن- لشاعرنا العظيم تركيبات لم تؤثر في الأدب الفارسي فقصاراه
أنه ابتكر عبارات في الفارسية . والرجل له فلسفة مبتكرة ، وآراء مبتدعة
روئض لها الشعر وذلكه . فلا عجب أن يضع ألفاظا مفرد قلعان محدثة أو
يحرفها عن معانيها قليلا ، ولا غرو أن يصوغ تركيبا أو تعبيرا بدعا لمعانيه
المبتدعة .

ولأقبال الفخر أنه ابتدع وجدد في المعاني والألفاظ والعبارات . ويزيده
فخرا أنه نقل ألفاظا من معان اباحية مبتذلة تتصل بالخم والسكر واللهو
والخلاعة وما اليها من الألفاظ التي شاعت في الأدب الفارسي فهوت به ،
نقل هذه الألفاظ الى معان روحية عالية واسعة لا تحدها حدود المادة .
كما رد- الى معانيها الأولى ألفاظا تجوز فيها الشعراء فلبسوا على الناس
مذاهبهم كالكفر والدين والدير والحرم والكعبة .

وفضل اقبال الأعظم ، وفخره الأكبر ، أنه أودع اللغة الفارسية
هذه الثروة من الفلسفة العالية ، والآراء السديدة ، وذلكها للشعر ،
ويسرها للمتأدبين . وما أعظم حظ اللغة التي يختارها اقبال لشعره . فهل
يؤخذ على مثل هذا الفيلسوف الشاعر أنه خرج بألفاظ عن معانيها ، أو
استعمل عبارات غير مألوفة في لغة العصر ، أو اخترع تركيبات غير مأنوسة
في الأدب الفارسي . وهل عمل النابغين الا الخلق والاختراع والتجديد
والتصحيح في الأفكار العامة ثم في المعاني الجزئية والألفاظ والأساليب .

ان من يعييون الشاعر العظيم بهذا يفضئون عن جناته وعيونه ،
ويصدفون عن أزهاره ورياحينه ، ولا يبصرون الا شوكة في غصن ورد أو

ورقة ذابلة في شجرة ناضرة ، كالذي نظر في ترجمة رسالة المشرق وضرب
الكليم الى العربية فعبس وبسر ، وأعرض عن النظم الرائق ، والسبك
الرائع ، وذهب يلتمس رباعية جعلتها مثالا للقافية المردوفة في اللغة الفارسية
وأنا أعلم انها غير مألوفة في العربية . وقال هذه لا تمثل نفس اقبال
وكأنني لم أترجم من شعر الشاعر الا هذه الرباعية . وما للانسان حيلة فيمن
يرون كلف البدر ولا يبصرون نوره ، والذين يعيون الجواد المظهم
الأشهب بشعرات سود في ذيله ولا يعجبون بشيء من محاسنه . وليت شعري
متى يقرأ المتأدبون بأداب الاسلام قول القرآن الكريم : « ولا تبخسوا
الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .
لقد صدق اقبال حين قال في رسالة المشرق :

رددت العُجم فتينا بلحني وراج متاعهم من بعد خسر
وكانوا هائمين بكل واد وقافلةً نظمتهم بشعري

بروح العجم من نفسى شرار ، قرعت لهم بأجراس فساروا
وعاليت الحداء لهم كعرفي تباطأ محمل ونأت ديار ١

على أن اقبالا يقول في مقدمة أسرار خودي :

ما قصدت الشعر من هذا الكليم نحت أصنام وتعظيم الصنم
أنا هندي شأنى الفارسيّ وهلال "أنا ذو جام خلى"

يقول انه لم يقصد في هذا الديوان الى الشعر صوره وأخيلته ومبالغاته
وانه لا يحكم الفارسية ولا يزال هلالا كأسه خالية من الشراب .

وهذا تواضع اقبال . وللادب رأيه في الاعتراف بتبريزه فيما نظم من
شعر أردى وفارسيّ .

(١) يشير الى بيت للشاعر مرفى الشيرازى معناه : ارفع صوتك بالحدا حين ترى تباطؤ القافلة



الفصل الخامس

أمثلة من شعر محمد اقبال

أقتصر في التمثيل على ما ترجمتُ نظماً من دواوينه • والذي ترجمت
أربعة دواوين : رسالة المشرق وضرب الكليم ، والأسرار والرموز •

ولا جرم أنه تمثيل ناقص لا يستوعب دواوين الشاعر ولكنه يفى
بتعريف القارئ أفكار الشاعر ومذهبه في الشعر • وكان يسيراً على
أن أعرض أمثلة منشورة من الدواوين التي لم أترجمها أو أنظم
أبياتاً قليلة منها للتمثيل ، ولكن الوقت لم يتسع ، ورأيت في الدواوين
الأربعة غنية ، الى أن تترجم الدواوين الأخرى ، على أنى نقلت في
الكلام على فلسفته وفي الكلام على مذهبه في الفنون ، فقرات منشورة من
الدواوين الأخرى •

يقول في شقائق الطور ، وهي الرباعيات من ديوان رسالة المشرق :

له نقش يجدد كل حين فلا تبقى الحياة على غرار
فأن صورتَ يومك مثل أمس فما يحوى ترابك من شرار

وفي الرباعية لمحة الى مذهبه في التجديد المستمر ، والجهد الدائب في
هذه الحياة •

ومن قوله في غشيان الأهوال ، وركوب الأخطار :

دع الشيطان لا تركز اليها ضعيف" عندها جرس الحياة
عليك البحر ، صارع فيه موجا حياة الخلد في نصب تواتي

ومن قوله في حرية الانسان :

بسلسلة القضاء ربطت رجلا وفي سعة العوالم ضقت حالا
فقم ، ان كنت في ريب، وأقدم تجد للرجل في الدنيا مجالا

ويقول في الاستقلال في الفكر والابتكار في العمل :

طريقك فانحتها في كِفاح طريق سواك مسلكتها عذاب
فان أبدعت في عمل فرى ، وان يك مأثما، فلك الثواب

تحنت لخلوتي طيني ومائي وبوعد بين أفلاط وبينى
فلم أستجد يوما عين غیری ولم أر عالمي الا بعينى

ويقول عن نفسه ويعنى كل شاعر ينفث في شعره نار الحياة ونورها :

أنا في الروض منفرد غريب على غصنى أنوح مع الرياح
فدعنى يارقق القلب وابعد فان دمی ليرشح في ثواحي

فأبلغ شاعر الألوان عنى : لهيئك كالشقائق لا بضير
ففسك لا تذيب بحر نار ولا ليلا لمحزون تنير

ويقول في ولوع الشاعر بالجمال ، واعرابه عن مكنوناته :

أنا في المرج حديث الطيور وميقول كل برعوم صغير
فأسلم للصبا تربي بموتى فمالي غير طوف بالزهور

ويقول في تطور العالم وتكتمه ، وأنه لا يزال يثما للكمال :

لنا كون لأزميل ونحت يقبله ساحك والمساء
مثال من تراب لم يكمل يسويه بمبرده القضاء

(1) فيه حمرة النار ولكن بارد كالشقائق تحسبها ملتبة وهي زهر .

ويقول فيما أثار بروح الشرق من الوجد والعزم في شعره :

نفتتْ النار من روحى نفتتْ بصدر الشرق قلبا قد بعثت
وصيّرَ طينته لها نواحي كبرق في سجايه انعتت

ويقول في نزوع الخليقة الى الحياة ، وفي لذة القلق والاحترق فيها
والشاعر يكبر الحياة ويعلى شأنها ويدعو الى قوتها ودوامها :

تقول فراشة" من قبل خلق : أنلنى لَمحةً قلقَ الحياة
رمادى فأذره صبحا ولكن أذقنى ليلة حُرِّق الحياة

ويقول في الهم الذى يعتلج في قلبه من أجل المسلمين ، وتأثيره فبهم :

قلوب المسلمين قبسنَ نارى ودمعى من عبونهم هتّون
بروحى محشر قد غاب عنهم فلم تر ما رأيتُ ، لهم عيون

وانظر وصفه الربيع في رسالة المشرق :

هلمَ فأن سحاب الربيع يخيم فوق الربى والوهاد

وشدو العنادل فى كل واد
وسرب القطا سادر فى تهادى
على حافة النهر جذلى شوادى
شقيق وورد ضحوك ينادى
فطرفك سرّح بهذا المراد

هلمَ فأن سحاب الربيع يخيم فوق الربى والوهاد

هلم فملاء الربى والسهول قوافلٌ أزهارها والورود
نسيم الربيع على كل عود
وللطير ابداعها في النشيد
ومزقت الجيبَ حمرَ الخدودِ
جنى الحسنُ ناضرَ زهرِ نضيد
وللعشق ابداع غمٍ جديد

هلم فملاء الربى والسهول قوافلٌ أزهارها والورود

دع الدور واطلب فسيح البرا رى وانظر الى صفحات الجمالِ
على حافة الماء دون ملال
تأمّل ترقق ماء زلال
وحّدق الى زجس ذى دلال
بنّاتٌ نيسان ذاتٌ اختيال
وقبّل لها أعينا كاللالى

دع الدور واطلب فسيح البرا رى وانظر الى صفحات الجمالِ
ويختم الموشح بهذه الأبيات :

ثرى المرج صرّح فى هيجه بما أضمرت مهجة الكائنات
فناءً الصفات وكون الصفات
وما أبدت الذات من جلّوات
وما خلّته من معانى الحياة
وما خلّته من معانى الممات
فليس له ها هنا من ثبات
ثرى المرج صرّح فى هيجه بما أضمرت مهجة الكائنات

(1) اى شقائق النعمان .

وهكذا ينتقل من الوصف الحسى الى المعانى التى نظر اليها من وراء
هذه المحسات

واقرا هذه الأبيات التى تصور مذهبه فى الحياة : الفلسفة بغير قلب
والفكر بغير عمل موت ، وينبوع الحياة الجدّ والكفاح
وعنوان الأبيات :

الأرضة

سمعت بمكتبى ليلة بناجى الفراشة سوس الكتاب :
يقول مررت بكتب ابن سينا ونقبت فى كتب الفارياى
ولم أدر حكمة هذه الحياة وما زلت من ظلمتى فى حجاب

تجيب الفراشة فى حرقة أرى نكتة لا تثرى فى كتاب :

رأيت الكفاح يمد الحياة

رأيت الكفاح يمد الحياة

واليراعة فى شعر اقبال صورة الحياة القوية فهى تطير بجناحيها ، وتضىء
لنفسها لا تستجدى غيرها نورا ، كما يقول على لسانها :

ولا أعشو الى نيران غيرى كما يهفو الفراش الى الحريق

إذا حلك الظلام كعين ظمى أنرت بنار أضلاعى طريقى

وهذه أبيات من منظومة فى رسالة المشرق عنوانها :

اليراعة :

وذرة حقيرة قد جمعت قواها

كأنها فراشة من حرق تصلاها

قد نُورِت دُجَاهَا

فهي آية خُلقت وانمقدت شرارا ١
من حرقة في قلبها تحوّلت نضارا

وبصرا نظارا

فراشة في قلق تطير كلّ ناحيه
على اللهب رفرفت حتى كأنه هيه

« أنا » و « أنت » قالية ٢

يا مشعلا للطير في ممسكر الظلام
ما حرقة أحستها فأنت في هيام ؟

حرارة الأقدام

فالجد والاقدام طارا بالذرة وحولاها نارا ونورا .

ولا أجد بدءا من اثبات آيات في العشق لها مشابه في شعره . والعشق
في فلسفة اقبال هو الحياة بل نار الحياة . يذكره في مقابل العقل والعلم .
وهما بدونه عجز وحيرة وجبن .

فكرى قد أجد كلّ سير وطاف حول جرم ودير
عدوت للطلاب في البيارى مرتديا بالنقع كالأعصار

(١) الآية الشماع كأنها شعاع انفصل من الشمس فانمقد نضارا .

(٢) تبغى الاتحاد وتلقى الانفصال الذى يكون فيه متكلم ومخاطب ، انا وانت .

بغير خضر أبتغى المنازل^١ يحمل رحلى للخيال كاهل
تطلب راحاً كأسى الحطيم كالصبح من شبابه النسيم^٢
منظويًا كالموج في البحار حيران كالاعصار في الصحارى

هذه الأبيات تصوّر كدّ العقل وسعيه في طلب الحقيقة دون جدوى
وفي الأبيات الآتية يصوّر فيض العشق في نفس هذا الطالب ، وفتح له
مغالق الحياة .

في الأبيات الآتية من القصيدة يقول ان العشق فاض بقلبه فأيقظ
وجدانه ، ويسرّ له كل عسير ، وحلّ له كل عقدة ، ورفع له الى عليا
الدرجات .

عشقتك فاض بفتة بقلبي وحلّ كل عقدة في لئبي
عرفنى الوجود والفضاء فصار ديري حرّما وضاء
على حصيدى مرّ كالبروق عرفنى لذادة الحريق^٣
صعقت منه وسلبت حتى فصّلت من نفسى مثل العكس^٤
رفعت للعرش المعلّى تربي بالسرّ قد أفشيت له قلبي
وبلغت سفينتى مرّساها وفاض قبحى روتها وتاها
عندى حديث العشق لا سواه لا أقبل الملام في بكواه

غنيت عن ومض العلوم . حسبى

دمعى ووجدى وخفوق قلبى

وهذه قصيدة الوحدة التى تصوّر فيها الشاعر انفراد الانسان في العالم
بالعقل والوجدان ، واحتماله الآلام . وأنه لا يجد نجية بين هذه الخلائق .
كما في القرآن الكريم :

(١) بغير دليل ، والخضر دل اسكندر في الظلمات كما في الاساطير .

(٢) كأسه تطلب الخمر وهى محطومة لا تمسكه ، كما يريد الصبح ان يحوى الاشياء بشبكة
من النسيم .

(٣) احرق ما جمع منه علم وفكر كما يحرق البرق الحصيد وعمره لذة الاحتراق .

(٤) العكس المصورة . واللفظ في الاصل . وفي ايران وبعض البلاد العربية يقال للمصور: عكاس

« انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها
وأشفقنَ منها وحملها الانسان . انه كان ظلوما جهولا »

قد قلت للبحر يوما في موجه المتعالى :
أراك دائبَ سعى فما تكنَ بيال ؟
كم قد حويت بصدر من لامعات اللآلى
أفيك مثلى صدر" بجوهر القلب حالى

فصدت عنتى بجزر

ولم يردت سؤالى

وقلت للطود يوما يا خاليا من عناء !
أنال سمعك صوت" من زفرة وبكاء ؟
ان كنت تحوى عقيقا فيه عروق دماء
فواسينى بحديث انى حليف شقاء

فصدت عنتى بصمت

ولم يردت سؤالى

جددتُ فى السير حتى أتيت بدر السماء
فقلت : يانِضو سير حَتَّامَ ذَرَعِ القِضَاءِ ؟
الأرض مَرَجَ زهور من نورك اللآلاء
أخلفَ نورك قلبم فى حُرقةِ وعناء ؟

رأى الكواكب ترنو

فلم يردت سؤالى

وقلت لله ربي من بعد طوف البرية :
أما بدنياك هذى من ذرّةِ بى حفيه ؟

وذى البرايا خليته ؟
ليست بشدوى حريته

أكلت طينى قلباً
طابت مروج ، ولكن

أجابنى بابتسام
ولم يردّ سؤالى

هذه حال الانسان فى العالم لا يجد شريكاً له بين الخلائق ينجيه
ويواسيه . والله تعالى حجب عنه الأسرار ، ووكله بالكشف عنها .

وقصيدة الحور والشاعر التى يعارض بها الشاعر الألمانى جوته ،
تصور مذهب اقبال فى الأمل الدائم ، والجدد الدائب والسير المستمر فى
هذه الحياة .

الحور :

ولا الينا أنت ناظر
بهوى الأجابة غير شاعر
وحرقه الطلب المثابر
وتفزل يشجو المزاهر
العجبية خلق شاعر
يبدو لعين سحر ساحر

لا الحمر يوماً تطئيك
عجب لنا من شاعر
من حرّ أنفاس الرجاء
نفس تذيب بلوعة
وخلقت بالألحان دنياك
تبدو بها ارم كما

الشاعر :

لا ترضى دعة المنازل
تهفو الصباحول الخمائيل
فاتن حلوا الشمائل
يلعوه حسنا فى المحافل
الى الشمس رقى آمل
فما أعوج على المراحل
الكاس تسرى فى المفاصل

ماذا أقول وفطرتى
قلبى على قلق كما
فاذا نظرت الى جميل
خفق القواد الى الذى
فمن الشرار الى النجوم
انى ليهلكنى القرار ،
واذا شربت من الربيع

أشدو بشعر حدث وريمى الأتى أغازل
 طلبى النهاية فى مدى لا ينتهى فيه المسائل
 لاصابر نظرى ولا قلبى عن الآمال غافل

هذه المعانى صورها الشاعر مئات الصور فى دواوينه . وقدمت فى تلخيص أسرار خودى فى باب الفلسفة من هذا الكتاب أبياتا وافية فى هذا الشأن .

وهذا مثال من قصائد فى رسالة المشرق تسمى الخمر الباقية ، وهى من الضرب الذى يسمى غزلا فى اصطلاح الشعر الفارسى ، ويغلب فيها التصوف ، وغموض المعنى ، ولا يلزم فيها وحدة الموضوع .

عقلنا ينحت ربًا كلّ حين فهو من قيد الى قيد ، رهين
 ارفع الستر جهارا لا تبكّل ليس فى حيك غيرى ذو حين
 أنا من عينى غيورٌ ناسج نظراتى لك سترا فى العيون
 بسمة خلّس ودمع ورنا ليس فى الحب سواها من يمين
 حبذا العشق فقى يوم النوى زاد باللوعة عهدا لا يمين^١
 أيها الطائر من قلبى اقبسن لتزيد النار فى هذا الأئين

سادن الكعبة لا تأذن له

فأقبال اله " كلّ حين

وهذه أخرى من الخمر الباقية :

فى ذلك الخفل سؤالى عن محرّم بى حقيق^١
 لذاك أزجى غنائى وفيه لمن الصديق^٢
 يث قلبى حديثا بمقلتى وبموقى
 فى خلوة كلّ لفظ فيها كتر صفيق
 مطهر^٣ نظراتى بدمع عين طليق

(١) لا يكذب . يعنى ان لوعة العاشق يوم الفراق عهد اخر نى الحب لا يكذب .

(٢) فيه اللحن الذى يعيه صديقه الذى يطلبه .

لوجهك المرموق
لعقدة ولضيق^١
أنبو بقلب مشوق

من أجل نظرة وجد
كالكم كل أموري
لكن الى ضوء شمس
الى أن يقول :

من لذة التحليق
طورا بروض شقيق

لا أستريح بعش
طورا بشاطيء نهر

واختتم التمثيل في هذا الضرب ، قصائد الخمر الباقية ، بهذه :

وعروس الشقيق تزهي بهاء
ذاك لحن من عالم الغيب جاء
في وتار الحياة أيان شاء^٢
قدر الله في الحياة لقاء
كل شيء كالرمل يمضي هباء
وأرض الحجاز قلبي أضاء
أرض شيراز حب ذلك انتماء^٣

عند ليّب الربيع جنّ غناء
لا متغن ولا مزاهر فيه
محرم السترنن يسدد ضربا
لا تفتف وخذ سبيل وداد
أين في دارة التراب مقام ؟
زهرة من رياض كشميرجسمى
وأغاني واللحون نمتها

وفي ديوان رسالة المشرق قسم سمّاه الشاعر نقش الفرنج ، ذكر فيها
جماعة من فلاسفة أوربا وشعرائهم .

وهذه أبيات من هذا القسم عنوانها (شوبن هاور ونطشه)
الأول الفيلسوف الألماني المتشائم الساخط ، والثاني فيلسوف القوة
والأقدام .

شوبن هاور ونطشه

طار من عشه يسير بروض فأصابته شوكة من زهور

(١) الوتار جمع وتر . ومحرم السر أهله .

(٢) أصل أسرة اقبال من كشمير ، وقلبه اضاء بالاسلام وشعره فيه نفحات شعراء شيراز ،

حافظ وسعدى وغيرهما .

(٣) مثل كم الزهرة ضيق معقد .

عن الروض والزمان ونادى ، بثبور لنفسه والطيور
ورأى وسمة الشقائق جورا ، وطلسم البرعوم خدع غرورا
قال : دار على اعوجاج أقيمت كل صبح فيها الى ديجور
ناح حتى تقاطرت نغمات من دماء بدمع عين غزير

وشجا الهدده النواح فوافي
ينزع الشوك من جناح الكسير
قال : أخرج من كل خسرك ربحا
مزق الورد صدره للعبير ٢

واجعل الجرح بلسما فسترضى
وألف الشوك تغد كلك روضا

هذه أمثلة من رسالة المشرق يرى فيها القارىء افتتان اقبال فى شعره
عامه ، وفى تصوير مذهبه خاصة .

وأردف هذه بأمثلة من ديوان ضرب الكلميم . وهو كما بينت فى
مقدمته ، وفى الفصل الأول من هذا الباب ، أقرب الى الفلسفة منه الى
الشعر ، وآراء اقبال فيه مقسمة على أبواب فى موضوعات شتى ، كأنه
كتاب .

تكلم الشاعر عن الاسلام والمسلمين ، والتربية والتعليم والفنون
الجميلة والسياسة ، ووصل كل هؤلاء بمذهبه فى الذات وتقويتها وصلا
ظاهرا أو حفيئا . وقدمت نماذج من شعر هذا الديوان فى الفصل :
« مذهب اقبال فى الفنون الجميلة » والفصل : « مذهب اقبال فى الشعر »

(١) رأى السمة السوداء فى الشقائق ظلما لها . وهذه السمة فى خيال للشعراء حرقه أو
وسمة كى او لومة حب . والبرعوم التطبيق على نفسه رأى فيه الفيلسوف المنشائم خداما فى
هذه الحياة .

(٢) يتفتح الورد لتفوح ريحه .

خاصة » . فحسبى هنا أمثلة قليلة في موضوعات أخرى .
آيات عنوانها : رجال الله

انما الحرُّ من يجيد ضرابا	لا الذى حرَّبه تدور هراء
وسجايا الأحرار تجمع تاجا	ذا سناء وخرقة وقباء ١
من خفايا ترابهم أخذ الدهر	شرارا فصاغ منه ذكاء
فطرة ٢ حرّة تصاف الدنيا	من طواف الأصنام عاشت براء
أنت فى الكفر والتدين جمعا	وثى ٣ تقدس الأهواء

وهذه صفة المؤمن من صفات كثيرة وصفه بها الشاعر الكبير :

فى الدنيا

مع الصحب لئن كس الحرير	بعيد من المحك المؤمن ٢
شديد ٣ اذا ما طفى باطل	وكالليث فى المعرك المؤمن
من الطين لكن على الأرض يسو	ويأبى على القلك المؤمن
وما همته صيد طير ولكن	بصيد من الملك المؤمن

فى الجنة

تقول الملائك فى غبطة :	حيب الى قلبنا المؤمن
وللحور شكوى الى ربها :	سريع الى هجرنا المؤمن ٢

وانظر هذه المحاوره بين الخالق تعالى وابليس فى آيات عنوانها :
القدر . والفكرة مأخوذة من ابن عربى .

(١) الحر لا يتغير بالاحوال المختلفة . ربما يكون فى وقت واحد ملكا ذا تاج وصوفيا ذا خرقة وشيخا ذا قباء .

(٢) القانية مردوفة بكلمة المؤمن . والروى الكاف فى الكلمات التى قبلها .

(٣) همته فى الجنة تسمو على الحور وكل متعة .

ابليس :

ليس عنه من محيد
بمدون أو حسود
ومكان في حدود^١
أو كيف أحيـد ؟
لست أرضى بالسجود

يا الـها أمره كن
لم يـصـب آدم منى
ويح غير من زمان
كيف أستكبر عن أمرك
كان في علمك أنى

الخالق :

قبل أو بعد الجود ؟

هل عرفت السر هذا

بليس :

كمالات الوجود

بمدو يا من تجليـه

الخالق (ناظرا الى الملائكة)

لقتنه الزور عذرا
أنا لا أملك أمرا
اختيارا فيه جبرا
شعلة فيه وجمرا

خسة الفطرة فيه
قال : ماشئت سجودى
ذلك الظالم سئى
انه سئى رمادا

ولبـ المحاوره أن ابليس لم يعرف أن اباء السجود مقدر عليه الا بعد
أن أبى . فالتقدير كان بعد ارادته . واقبال من دعاة حرية الارادة ، بقول
ان الانسان يبلغ من الحرية والمكانة عند الله أن يكون عزمه مشيرا على
القدر .

وهذا خطاب

الى أمراء العرب

مسائلا أمراء العرب فى أدب :
بحكمة فأعاتها على النوب :

هل يسعد الكافر الهنـدى منـطقه
من أمة قبل كل الناس قد أخذت

(١) كيف أحد هذا الفر المقيد بالزمان والمكان .
(١) اجداد اقبال كانوا من البراهمة فلهدا يسمى نفسه الكافر الهنـدى .

اخاء كل- تقى- دون تفرقة
وهجر كل غوى من أبى لهب
ما من حدود وأرض كان منشؤها
من أحمدا العرب كانت أمة العرب

ينعى على أمراء العرب التفرق والتفريق بين الناس ويقول انهم أول
أمة تجاوزت حدود النسب والوطن ، وآخت في الناس كل مهتد يتبع
الرسول ، وهجرت كل غوى- يتبع أبى لهب .

وهذه قطعة يسمو فيها اقبال على الأقسام والأوطان ، بل على الدنيا
والآخرة ، وينفث فيها قوة الحياة ونارها :

الى عصبات العرب ما أنامتكم
وقد حلتقت بى (الذات) تحليق نافر
ولا أنا هندی ولا أنا أعجمى
ير- على الدارين غير محوم
وأنت بعينى كافر غير مسلم
ودينى احراق لأنفاس متقدم
فليس يضيق الطبى شرعة ضيغم^٢
تشب- بهذا العقل نار التقدم
فموت شعوب لحن هذا المنغم

واقبال يكرم المرأة كل اكرام ، ولكن لا يرى أن من كرامتها ما يسمى
حرية في هذا الزمان . ويقول فيما يقول : لا بد من خلوة المرأة الى
نفسها في بيتها .

وهذه أبيات من قسم المرأة من ديوان ضرب الكليم عنوانها :

الخلوة

فضح العصر جنة بالسفور نور عين ، وظلمة في الصدور
ان تجز متعة العيون مداها كان منها الشتات في التفكير

-
- (١) هذا فرق بين المؤمن والكافر ، الاول يقدم محرقا انفاسه ، والثانى بحجم معددا انفاسه .
(٢) يكرر اقبال هذا المعنى ، ان المسلمين ضعفوا عن شريعة الاسلام فأولوها تأويلا يلائم ضعفه .
(٣) اسلم المسلمون لقضايا الفلسفة والمنطق وتركوا الاقدام الذى لا يبالى بشئ ، فليس
في صحرائهم اليوم الجنون الذى يعلم العقل الاقدام . يشير الى مجنون ليلى .

قطرة الماء لا تحوّل دّرًا - دون أصدافها بقاع البحور
وأبيات أخرى عنوانها :

حصانة المرأة

في الصدر سرّ ليس يدركه من حاز بردَ دمانه عصب :
حفظ الأنوثة في يدَيّ رجل لا العلم يحفظها ولا الحُجُب
ان غاب هذا الحق عن أمم فكسوف شمس نهارهم كُتِب
وأختم التمثيل بقطعة في باب السياسة من ضرب الكلم عنوانها :

الى أهل مصر

من أبي الهول أتتى نكتة وأبو الهول طوى السرّ القديم
كم شعوب بدلت سيرتها قوة لم يحفّها العقل الحكيم
طبعها في كل عصر مائل تبدل الشكل وتبقى في الصميم
فهي طوراً في حسام المصطفى وهي طوراً في عصاموسى الكلم

خاتمة

هذا ما وسعه الوقت ، وأذنت به الشواغل من سيرة اقبال وفلسفته
وشعره ، أقدمه لقراء العربية مقدمة لما عسى أن يتلوه من نظر أوسع
وأعمق في فلسفة هذا الشاعر الذى حمل الى الناس كافة ، والى المسلمين
خاصة ، رسالة الحياة والأمل والقوة الروحية في هذا العصر .

وقد بلغ القلم هذه الخاتمة في مدينة كراچي والساعة خمس وربع ٢
من ليلة الجمعة الرابع والعشرين ٣ من رمضان سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة
وألف من الهجرة ، الموافق الثامن والعشرين من شهر نيسان سنة أربع
وخمسين وتسعمائة وألف من الميلاد .

والله حسبي وكفى . وهو المسئول أن يهدينا الى الحق ، ويرزقنا
الاخلاص في كل قول وفعل .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه .

اتتهى

(١) ابو الهول يمثل القوة والعقل . رأس انسان على جسم أسد .

(١) بالتوقيت العربى وهو يبتدىء من غروب الشمس .

(٢) بتوقيت باكستان . وهو الخامس والعشرون بتوقيت مصر هذه السنة .

فهرس الكتاب

٢	مقدمة الكتاب
	الباب الاول - سيرة اقبال
١٥	الفصل الاول - اسرته
١٩	الفصل الثانى - فى سىالكوت
٢٢	الفصل الثالث - فى لاهور الى سنة ١٩٠٥
٢٧	الفصل الرابع - سفره الى اوربا
٣٠	الفصل الخامس - اقبال فى وطنه - من عودته من أوربا الى وفاته
	الباب الثانى - فلسفة اقبال
٤٨	الفصل الاول - منظومة اسرار خودى ، وما اثارته من جدال
٦٧	الفصل الثانى - خلاصة اسرار خودى
٤٨	الفصل الثالث - المنظومة الثانية ، رموز بى خودى
١١١	الفصل الرابع - اوجه اخرى لفلسفة اقبال
١٢٥	الفصل الخامس - اجابة اقبال للمعترضين على فلسفته فى اوربا
١٣٢	الباب الثالث - شعر اقبال
١٣٣	الفصل الاول - دواوين اقبال
١٤٣	الفصل الثانى - مذهب اقبال فى الفنون الجميلة
١٥٨	الفصل الثالث - مذهب اقبال فى الشعر خاصة
١٦٤	الفصل الرابع - شعر اقبال
١٧٦	الفصل الخامس - امثلة من شعر اقبال